معالم
السلوك الصوفى

أ.د./ أحمد عبدالرحيم السايح
الأستاذ بجامعة الأزهر وقطر وأم القرى

يوزع مجاناً

تبدأ دعوات الإصلاح بروح صوفية تدعو إلى تزكية

النفس وتطهيرها والتصدي للفساد والانحراف

وحينما تختلط بالدنيا وتبدأ الغنائم

لا يلبث القائمون عليها في استغلال الدعوة

لتبرير استئثارهم بالسلطة ونفيهم للآخر

وشعارهم هو من ليس معنا فهو علينا

وبالتالي فهو كافر ومشرك

ومستباح المال والعرض والدم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين أحمده سبحانه وتعالى ـــ حمدا كثيرا طيبا .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد

فإن السلوك الصوفي القائم على كتاب الله وسنة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـــ كان سمة المسلمين في إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، وكان سببا في انتصارات المسلمين في معارك الحياة .

ولما كان السلوك الصوفي ملتزما بكتاب الله وسيرة الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان ضرورة من ضرورات الحياة .

ومما هو واضح أن التصوف الإسلامي يعتمد أساليب ووسائل دعوية تخاطب القلب والعقل في الإنسان ولذلك نجح الصوفية في نشر الإسلام ومخاطبة الناس بأساليب تربوية، ووسائل جاذبة إلى الأمن والاستقرار .

وقد يكون واضحا أن أساليب السلوك الصوفي تنطلق من القرآن الكريم آخذة بالسالكين إلى طريق الرشاد والسداد .

وإن ميادين الجهاد في الإسلام كان يحتشد لها وفيها رجال التصوف الإسلامي الذين باعوا أنفسهم لله، ووهبوا أنفسهم لأوطانهم ومجتمعاتهم ..

ومـــن شأن أبناء الأمة أن يقدموا إلى الناس وسائل السلوك الصوفي ليتعرف الـــناس على كل ما من شأنه أن يفيد المجتمعات، ويقدم لها الإسلام الصحيح في وقت تشتد الحاجة فيه إلى المعرفة التي ترقى بالمجتمع .

وإن أمة يوجد فيها الصوفية لهى أمة حية تستطيع أن تحقق الأمجاد، وتمتلك ما يرقى بها وبمجتمعاتها ما يؤهلها للعطاء الحضاري.

أ. د . أحمد عبد الرحيم السايح

الإرادة والمريد

يعتمد التصوف الإسلامي عند السالكين على الإحساس الوجداني والانفعال النفسي، والتعلق القلبي، والثقة، والإخلاص، واليقين.

والسلوك تعبير عن إحساس نفسي وشعور حي لدى الإنسان الذي يدرك أن الله مصدر الغنى والكمال والإفاضة في هذا العالم .

ولاشك أن هذا الشعور يقود إلى توجه النفس البشرية إلى مبدئها الذي يهبها ما يوفر لها كمالا ويحفظ وجودها، ويسد فقرها .

والمـؤمن بـالله يعرف مصدر توجهه ومبدأ حياته، وهو الله سبحانه وتعالى فيتوجه إليه بروح مؤمنة، مملوءة بالأمل والثقة، والرجاء .

والـنفس البشرية ذات الأبعاد المختلفة، والأعماق والأغوار المعقدة الغامضة لا يمكن ملؤها بالحاجات المادية وحدها، مهما يغالي الإنسان في الإشباع المادي . ولـيس كل شيء في الحياة يتحقق للإنسان كما يريد، ولا كل شيء يجري وفق مـشيئته وبـذلك تبقى الحاجة قائمة، والرغبة غير مشبعة ، والشعور بالحاجة مـتعاظما في نفس الإنسان، وتلك حكمة الله الخبير في الخلق، جعل كل ذلك، ليبقى الإنسان مرتبطا بالخالق متوجها إليه، ساعيا نحو الكمال .

ولهذا كان السلوك إلى الله وسيلة لربط الإنسان بالله، والتوجه إليه، وإظهار حاجـة الإنسان وفقره وضراعته ورغبته في إصلاح نفسه، وإنعاش حياته لكسر كـبرياء الإنـسان، وتعريفه بحقيقة ذاته، وبحاجته إلى خالقه في الخلق، والإيجاد، والإمداد .

وهـذا كلـه يحتاج إلى إرادة، وعزم، وكم يكون الإنسان سعيدا وهو يحس بكـل دوافع الإحساس الصادق، أن الذي يقف بين يديه، يعاهده على الصدق في الاستقامة والالتزام بالسلوك الخير .

وهــذه الــوقفة التي تكون فيها النفس في حالة صحو وجداني لا تتحقق إلا بالإرادة التي تصدر عن رغبة وتوجه صادق، تجعل القوى النفسية في اتزان وسير الحركة في تنظيم .

وإننا ونحن نقدم للدخول على الحكيم الترمذي لنلقي الأضواء على "الإرادة والمــريد والمــراد" عنده، نلحظ أن الحكيم كثيرا ما يعبر عن "الإرادة" بما هو علامة عليها أو وسيلة من وسائلها كالرياضيات والمجاهدات وما ينبعث منهما، ويتفــرع عنهما، ويدور حولهما، ونجد له فصلا في كتابه "معرفة الأسرار" تحت عــنوان "في طــبقات أهل الإرادة" يقول فيه "طبقات أهل الإرادة على ثلاث مراتب :

- مريد يريد الله لنفسه، وعلامته أن يعامله على الرغبة والرهبة والرضا .
- ومــريد نفسه لله تعالى، وعلامته أن يعامل الله على الرضا بالقضاء مع الوفاء .
- ومــريد يريد الله تعالى، وعلامته أن يعامل الله من غير عوض ولا طمع ولا علاقة ".

فالإرادة عند الحكيم ــ كما تتضح من طبقات أهل الإرادة ــ الإقبال على أوامــر الله تعالى وصولا إلى الله "لأن الوصول إلى معرفة الحق في المنهج الصوفي قــائم علــى سلوك معين يبدأ بالإرادة الذاتية للفرد الذي يريد الوصول مرورا بتقنية معينة على مستوى الإرادة "تحرير الإرادة من النفس وسلطانها عن طريق المجاهــدات والرياضــيات، وصولا إلى أدب الحضرة الإلهية حتى يصبح "المريد" مؤهلا للتلقي" .

والإرادة عــند الحكــيم كمــا تتضح من الرياضة وأدب النفس ــ انبعاث صادق يأتي عن إيمان صادق، ويقين بضرورة المجاهدة .

يقــول الحكيم الترمذي : "فعالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس، فإذا كان كــذلك صفا قلبك من كدورة الأخلاق، وطهر من شهوة الآثام فاستقر اليقين فيه لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكانا ظاهرا، فتحيا القلوب وتصلب".

فمعالجـــة القلـــب حـــتى يتم تحريره من رق النفس إرادة تنبعث عن الإيمان الصادق بالله، وإذا كانت الرياضة وأدب النفس سلوك فإن هذا السلوك لا يتم إلا بالإرادة .

ولعلـــنا من تتبع ما ذكره الحكيم الترمذي من علامات الإرادة وما هو من وســـائلها وما جاء عنه في طبقات أهل الإرادة نستطيع أن نقول إن الإرادة عند الحكيم الترمذي قصد في الأمور وإقبال على الله تعالى، والجرجاني في التعريفات يذكر أن الإرادة غذاء الروح من طيب النفس، وقيل :الإرادة حب النفس عن مرادالها والإقبال على أوامر الله تعالى والرضاء .

وقـــد يكون ما ذكره الجرجاني قريبا مما جاء عن الحكيم الترمذي وقد يتفق الـــصوفية مع الحكيم الترمذي على ضرورة حتمية الرياضة والمجاهدة في طريق أهل الله، فهي المدخل الوحيد للتحكم في النفس الإنسانية والسيطرة عليها .

يؤكد ذلك الحكيم الترمذي حيث يقول : "فأما الرياضة فهي مشتقة عربيتها من الرضى، وهو الكسر، وذلك أن النفس اعتادت اللذة والشهوة، وأن تعمل بهواها فهي متحيرة قائمة على قلبك بالإمرة وهي الآمرة بالشهوة فيحتاج إلى أن يفطمها، فإذا فطمها عن العادة انفطمت فهذه النفس إذا فطمتها انكسرت عن الإلحاح عليك".

"فمتى تحكم صاحب الإرادة بنفسه لم يبق فيه من الشهوات ولا من الهوى ما يثقل عليه قبوله من ربه، فيصبر ويرضى ولكن متى عجز عن الرياضة فإنما يقبل أحكـــام الله تعالى ومشيئاته على حد الإيمان وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه على ثقل من نفسه، وتنغيص وتكدير من عيشه، وجهد من قلبه" .

وإذا كـــان هذا شان الإرادة عند الحكيم الترمذي فإن المريد اسم فاعل من "أراد" والـــتي هـــي عند الحكيم "قصد" وقد اكتسب "المريد" في السلوك عند الحكيم هذا الاسم لثلاثة أسباب :

الأول : أنه مريد يريد الله لنفسه فيعامل الله على الرغبة والرهبة والرضا.

والثاني : أنه مريد نفسه لله تعالى يعامل الله على الرضا بالقضاء مع الوفاء.

والثالث : أنه مريد يريد الله تعالى وعلامته أن يعامل لله من غير عوض، ولا طمع ولا علاقة .

فالمريد من أراد السلوك، والمراد يطلق على السالك عندما يكون موضوع إرادة الحق . يقول الحكيم الترمذي :"فلما كان العبد بهذه الصفة أمر بالمجاهدة فقال عز وجل : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد أخبرهم عن سنته وحسن صنيعه وبره ولطفه بهم، فقال عز وجل : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعلمهم أنه لو لم يجتبيهم، ولم يوقع اختياره عليهم ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة وكانوا أسارى في يد العدو، وحطبا للنار فأخبرهم أنه اجتباهم ".

فالتطهر الذاتي والمجاهدة النفسية مقدمات ضرورية وشروط لازمة لصلاحية سلوك الطريق، وتعد من قبيل الاتجاه الأخلاقي الشائع عند كثير من المتصوفة، ولكن الحكيم الترمذي أضاف إلى ذلك ما يمكن أن يسمى بالتطهر بالمنة والابتلاء ولعلها تجربة ذاتية للحكيم الترمذي أو عرضه الآخرون لها، وأفاد منها فائدة كبيرة فأراد أن ينبه الآخرين من رواد الطريق إلى أهمية هذا النوع من التطهر وأهميته وفائدته .

وذلك أن الحكيم الترمذي تعرض للابتلاء فكان ذلك سببا في تطهيره لأن الغموم تطهر القلب حتى وصل به إلى حلاوة تلك الذلة، وانفتح قلبه في الطريق فتحا .

وقريب من تجربة الحكيم الترمذي ما حدث للإمام الغزالي حتى شفاه الله من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمر ويقين ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر . وإذا كان للإرادة استعمالان ـــ كما عرفنا ـــ فإن لكل استعمال منهما معناه، حيث يسمى الاستعمال الذي يسند الإرادة إلى

العبد "مريدا" والاستعمال الذي يسند الإرادة إلى الله تعالى "مرادا" وتظهر التفرقة بين "المريد والمراد" في فصل يعقده الحكيم الترمذي لهذا الغرض فيقول :

ـ المريد يطلب الأحوال بجهده .. والمراد تطلبه الأحوال.

ـ والمريد يجد ألم السير .. والمراد لا يجد ألم السير.

ـ والمريد يسير إلى الله قصدا .. والمراد لا يسير إلى الله سبقا .

ـ والمريد يطلب العوض .. والمراد لايطلب العوض.

ـ والمريد في طلب الله مدلل .. والمراد مع الله مدلل حتى يفيق المراد من سكرته، حتى بتجلى له الجليل بهيبته فيفيق من سكرته ويكون أسيرا في قبضته حرا في ملكه" .

فالحكيم الترمذي في هذا النص يعطينا التمييز بين كلمتي "المريد والمراد" اللتين تطبقان على السالك :

فالمريد من أراد السلوك وطلب النتائج بمكابداته ومجاهداته ورياضاته، ووجد مشقة السفر والسلوك وقطع العلائق ليفرغ المحل، واتقى قلبه شوائب الأفكار. والمراد هو من كان موضوع إرادة الحق ولذلك تطلبه الأحوال ولا يجد مكابدة ومجاهدة ويسير إلى الله سبقا وقد كشف له الأمر .

ونجد قريبا مما ذكره الحكيم الترمذي في كلمتي "المريد والمراد" ما جاء عن عبد القادر الجيلاني . حيث يقول :

ـ المريد يكابد ويجاهد .. والمراد يتنعم ويسعد .

ـ والمريد يتولاه سياج العلم .. والمراد تتولاه رعاية الحق تعالى.

ـ والمريد يسير .. والمراد يطير .

ـ والمريد هو طالب الحقيقة .. والمراد هو المطلوب من الله .

ـ والمريد مجاهد يجاهد .. والمراد موهوب واصب .

ـ والمريد يعمل .. والمراد يرى التوفيق والمنة .

ـ والمريد يكافح في سلوك السبيل المستقيم .. والمراد قائم على مجمع كل سبيل .

ـــ والمريد ينظر بنور الله .. والمراد ينظر بالله .

ـــ والمريد قائم بأمر الله .. والمراد قائم بعلم الله .

ـــ والمريد يخالف هواه .. والمراد يتبرأ من درجته ومناه .

ـــ والمريد يتقرب إلى الله .. والمراد مقرب إلى الله .

فالمــتأمل في كلمـــات الجــيلاني التي جاءت في "المريد والمراد" يجد أنها تمتد جذورها إلى ما ذكره الحكيم الترمذي، فمعاني كلمات "الجيلاني "تعبير صادق عما ذكره الحكيم، وربما يكون الجيلاني" 488 هـــ ـــ 528 هـــ" قد تأثر إلى حد كبير بالحكيم الترمذي "ت 320 هـــ ".

وقـــد يكـــون ذلـــك راجعـــا إلى أن السلوك واحد ينطبق على الجميع ، فالرياضـــيات والمجاهدات التي اكسبت المريد الأحوال والمقامات يمارسها جميع المـــريدين . ولكـــن رغم أن السلوك إلى رب العالمين واحد فإن الطريق تتعدد، ولهذا تظهر شخصيات صوفية مميزة وفي هذا دليل على أمرين :

الأول : إن الإنـــسان يكتسب الأهلية للتلقي الإلهي أي أنه بممارسة السلوك الصوفي من مجاهدة ورياضة يتم التعرض للنفحات الإلهية .

الـــثاني : إن تسليم الإرادة إلى الغير في السلوك الصوفي لا يؤثر سلبيا على شخصية المريد، فها هي تظهر في ذاتيتها وتميزها بعد المجاهدة والرياضة .

ولا يفوتـــنا أن نعـــرف أن المراد عند الحكيم الترمذي كان قد بدأ الطريق "مـــريدا" ولـــذلك نجـــد الحكيم الترمذي يقول "والرياضة عبارة عن تهذيب الأخـــلاق وترك الرعونة، وتحمل الأذى، فإن الإنسان إذا لم يتقدم فتحه رياضته لا يجيء منه رجل أبداً إلا في حكم النادر".

ويبدو أن الإمام القشيري استفاد من كلام الحكيم الترمذي لذا يقول: "فأما الفـــرق بـــين المريد والمراد، فكل مريد على الحقيقة مراد إذ لو لم يكن مرادا لله تعـــالى بـــأن يريده لم يكن مريداً، إذ لا يكون إلا ما أراده الله تعالى، وكل مراد مريد لأنه إذا أراده الحق سبحانه بالخصوصية وفقه للإرادة" .

ولكن إذا كان هذا شأن المريد والمراد عند الحكيم الترمذي والسالكين فإن معنى ذلك أن المريد هو من يبدأ السير في الطريق بجد واهتمام وقصد ومجاهدة، ويستمر في سيره إلى الله.

فصدق الإرادة إنما يكون في الاتجاه إلى الله تعالى فحسب، فهو إقبال خالص لطاعـــته، وذلك بالعمل وبالكتاب والسنة، فيستضيء القلب بنوره تعالى، ولا يـــرى حظـــاً لنفسه لاسترسال إرادته، مع الله، فانعقاد الإرادة ـــ إذن ـــ هو الأســـاس، وما أراد المريد إلا بعد أن خلصت إرادته وما خلصت إرادته إلا بعد أن تطهـــرت نفسه، وفتح على قلبه، فما بقي له إلا الله ناصراً، وهاديا، ومعيناً، فنومه، وأكله، ووجده وكلامه ضرورة وهو يروض نفسه وينصحها، ولا يحببها إلى هـــواها، وما تتلذذ به ويأنس بالخلوة مع الله، ويرضى بقضاء الله، ويختار أمر الله ويقـــف على كل سبب يقربه من الله، فهو مخلص على الدوام صادق على الاستمرار. وعندما يصل المريد إلى هذه الدرجة يحبه الله ويقربه فهو إذن "مراد لله" قريب من رحمة الله، ولطف الله، تخلع عليه أنواع الخير والطمأنينة" .

فالمريد إذا سكنت حركاته الشهوانية صار قلبه خزانة الله، فهو مريد مبتدئ في أول الطريق، مراد لله في نهايته، فلقد جاهد كمريد، ثم هو كمراد ألقى الله في قلبه السكينة والطمأنينة.

وعلـــى ذلـــك: "يختلف مراد الله في العبيد من أهل معرفته، فبعضهم ينبعث بـــإرادة داخلـــية حتى يصل بعد جهد كبير، وبعضهم يرادون للوصول ابتداء فتبعثهم بهجة الوصول إلى العمل فيكون عليهم يسيراً" .

وإذا كنا قد عرفنا أن "المريد" عند الحكيم الترمذي ومن يسلك الطريق الحق بـــصدق، فـــإن الحكـــيم يضع للمريد المحقق ثلاث علامات تدل عليه، وترشد السالكين إلى الصحيح، وتهدي السائرين إلى النور، قال الحكيم الترمذي "فالمريد المحقق له ثلاث علامات:

ـــ أنه لا يجزع من الذل والبلية.

ـــ ولا يغتر بالنعمة والعطية.

ـ ولا يفارق قلبه خوف البعد والقطيعة" .

ومما لا ريب فيه أن هذه العلامات التي وضعها الحكيم الترمذي للمريد المحقق تمـــنح السالك انتقالا وتحولاً في خط الحياة وطبيعة السلوك، لأنها تعد علامات مـــضيئة على الطريق، تحدث في الأعماق تغيراً نفسياً، يجعل المريد راضياً عن الله علـــى كل حال، غير راض عن نفسه، وإذا كان من علامات المريد عند الحكيم الترمذي "أنه لا يجزع من الذل والبلية" فإن الحكيم قد عايش هذه العلامة حيث تواترت عليه الغموم، ووجد في ذلك سبيلا إلى تذليل نفسه من طريق الذلة مثل ركوب الحمار في السوق، والمشي حافيا في الطريق، ولبس الثياب الدون، وحمل شيء مما يحمله العبيد والفقراء واشتد ذلك عليه .

أمـــا العلامة التي يقول فيها الحكيم: "لا يغتر المريد بالنعمة والعطية" فمعنى هذا أن يتفقد كل حال، وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار من نعمة أو وجود لذة أو أنس بشيء، فيقطعه عنها، وأنه كلما هويت النفس شيئا أعطاها فرحت به، فينبغي له أن يمنعها ولو شربة من ماء بارد تريد أن تشربها" .

وأمـــا العلامـــة التي يذكرها الحكيم الترمذي بقوله: "ولا يفارق قلبه خوف الـــبعد والقطيعة" فإنها تجعل المريد يهرب من سخط الله تعالى ومن كل ما يبعده عن الله تعالى.

وبهذا يكون الحكيم الترمذي قد وضع المريد أمام طريق تربوي توجيهي يأخذ بالسالك إلى الصواب.

وسائل السلوك

لقـــد بلغ من اهتمام الحكيم الترمذي بالسالكين أن جعل لهم وسائل جاءت في كـــتاب أسماه "منازل العباد من العبادة أو منازل القاصدين إلى الله"، وفي هذا الكـــتاب يـــستعرض الحكيم الترمذي منازل العباد والتي هي وسائل في طريق وصولها إلى الله، ويقدم وصفا لأهل كل منزلة من هذه المنازل مستشهدا على ما

يقول من القرآن الكريم والسنة النبوية. ومن عادة الحكيم أن يدلف إلى ما يريد بمقدمة قصيرة يذكر فيها الهدف من الكتاب والداعي إليه، وأهم محتوياته، ولقد جــاء قوله في مقدمة كتاب "المنازل" "فإنكم سألتموني عن وصف منازل العباد مـــن هذا الدين وأن أذكر لكم على كل مترلة منها من طريق الكتاب المترل ما يكـــون شاهدا على وصفي" ويفهم من العبارة المذكورة التي جاءت في مقدمة المنازل أن هناك سؤالا كان موجها إلى الحكيم الترمذي، وقد يكون هذا السؤال مـــوجها إليه من جماعة قد يكونون تلاميذ، وقد يكونون أصدقاء يتباحثون معه، وقد يكونون مناظرين يسألونه الدليل على ما يدعو إليه، وقد يكون الأمر على غير هذا كله، وأنه ليس هناك سائل مباشر، وإنما شعر أن عرض مثل هذه الآراء على الناس يحتاج إلى بسط وسند من كتاب الله وسنة رسوله، وربما لم يكن هناك داع أصـــلا مـــن هذه الدواعي وإنما هي سنة المؤلفين وسنتهم في ذلك العصر، وجدوا فيها وسيلة لعرض أفكارهم على الناس، ودعوهم إلى مناقشتها والأخذ بهـــا أو الـــرد علـــيها، والحكيم الترمذي في منازل العباد من العبادة أو منازل القاصـــدين إلى الله بـــدأ بعرض الوسائل، ووصف أهلها والمستحقين لها بحسب تحقـــيق هذه الأوصاف للانخراط في المترلة التي تؤهل لها، وبعد أن عرض الحكيم ذلـــك، أتى بالدليل على كل مترلة من القرآن الكريم والخبر المأثور. ويقينا أن الحكـــيم التـــرمذي كان يرمي إلى تأييد ما يراه، ويدعو إليه من الآراء بالكتاب والـــسنة، ويرد بطريق غير مباشر على هؤلاء الذين يتهمونه ويتهمون غيره من شيوخ الصوفية بالخروج على ما جاء به الكتاب . وفي نوادر الأصول في معرفة أحاديـــث الرسول "يقيم الحكيم الترمذي الأصل الثالث والثلاثين والمائة تحت عـــنوان :"فيما يعلم به مترلة العبد عند الله تعـــالى" ويســـوق حديثا جاء عن جابـــر رضى الله عنه حيث قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال :"أيها الناس من كان يحب أن يعلم مترلته عند الله فلينظر كيف مترلة الله عنده، فإن الله عز وجل يترل العبد منه حيث أنزله من نفسه، وإن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله في الأرض ألا فارتعوا في رياض

الجـــنة. قالـــوا: وأين رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله واذكروه بأنفسكم" .

يقول الحكيم الترمذي بعد أن استند على هذا الحديث "فمنزلة الله عند العبد إنمـــا هي على قلبه على قدر معرفته إياه وعلمه به وهيبته منه وإجلاله وخشيته وحـــيائه منه، والخوف من عقابه والوجل عند ذكره وإقامة الحرمة لأمره ونهيه ورؤية تدبيره والوقوف عند أحكامه بطيب النفس والتسليم له بدنا وقلبا وروحا ومـــراقبة لتدبيره في أموره ولزوم ذكره والنهوض بأثقال نعمه وإحسانه وترك مـــشيئته لمشيئته وحسن الظن في كل ما نابه، والناس في هذه الأشياء يتفاضلون فمنازلهم عند ربهم قدر حظوظهم منها ".

التوبة

"التاء والواو والباء" كلمة واحدة تدل على الرجوع، يقال : تاب عن ذنبه أي رجـــع عـــنه وتـــاب الله عليه : وفقه للتوبة، أو رجع عنه من التشديد إلى التخفـــيف أو رجـــع عـــنه بفضله وقبوله. والتوبة بتحليلها الواقعي هي انتقال وتحول في خط الحياة، وطبيعة السلوك، لأنها نتاج تغير نفسي وفكري يحدث في أعمـــاق الإنـــسان. والحكيم الترمذي يرى أن التوبة من باب رحمة الله بعباده الامتنان عليهم. ونجد هذا واضحا في قوله :"إن لله عبادا نظر إليهم بالرحمة فمن علـــيهم بالـــتوبة وفتح أبصار قلوبهم" ويستند الحكيم الترمذي فيما ذهب إليه بقـــوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْـــسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِـــيمٌ ﴾ فوعد المغفرة والرحمة" إذن "المن" بالتوبة عند الحكيم الترمذي ـــ من باب "الـــرحمة" وهؤلاء الذين من الله عليهم بالتوبة : "تمثل قبح المعاصي في صدورهم حتى نظـــروا إلى سوء ما عاملوا الله به وانكشف لهم العاقبة عن مسكن العاصين فبادروا بـــالنزوع عـــنها فقوى الله عزمهم، وأيدهم بتوفيقه، فكلما نزعوا عن معصية صقلوا قلوبهم عن نكتة تلك المعصية وسوادها.

ويستند الحكيم الترمذي في ذلك إلى قوله ﷺ : "إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء فإن عاد نكتت أخرى فإن تاب ونزع صقل قلبه" ثم قرأ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فإذا تاب صقل القلب وأضاء. فإذا لاقته الموعظة لاقت قلبا مصقولا" يستنير ويشرق النور من قلبه في صدره فلا يحجب عنه قلبه فيصير كهيئة ما روي في الحديث : "أعبد الله كأنك تراه وليس تراه".

ويستند الحكيم في توفيق الله وتأييده لهؤلاء الذين بادروا بالنزوع عن المعاصي على قوله تعالى :﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

وأنت ترى مما ذكره الحكيم الترمذي واستدل به أن التوبة تعبر عن حب الله لعباده وكمال صفات العفو والرحمة لديه سبحانه وتعالى. وهي تعبر عن استمرار فيوضات اللطف والخير وشمولها لمسيرة الإنسان ليندلج في طريق الخير بعيدا عن الانحراف والتيه .

والحكيم الترمذي كما قد وضح أمامنا يذهب إلى أن التوبة منة من الله يمن بها على من يشاء من عباده .

ولكن لنا هنا أن نتساءل ؟ إذا كان الحكيم يرى أن التوبة من باب "المنة" فكيف تكون مقاما أو منزلة والمقامات كما يقول القشيري "مكاسب" والأحوال مواهب ؟ فهل يعني هذا أن الحكيم الترمذي لا يرى تلك التفرقة بين الأحوال والمقامات من حيث إن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ؟ .

يبدو لنا أن الصوفية حينما يقولون بأن المقامات مكاسب فليس معنى ذلك إلغاء "المنة الإلهية" في هذه الحالة إلغاء تاما بل معناه أن الجهد المبذول من السالك تحفه المنة بدءا وانتهاء فالتجربة الصوفية أو السلوك الصوفي يتحقق

ويظهر في مجال المجهود الإنساني والرياضة والمجاهدة ومجال المنة أي العطاء الإلهي الفائق "فهو إلهي من حيث مبدؤه الفاعل، وإنساني من حيث مظهره القابل".

كـــذلك يـــضاف إلى ما سبق أن كون "التوبة" منة لا ينفي أن للعبد جهدا بشكل ما في تقبل هذه المنة أو في استقباله لهذه المنة .

ولا بد لنا هنا من أن نفرق بين أشكال من المنازل والمقامات، حيث إن هناك منازل ومقامات عند الحكيم الترمذي تقوم على الجهد المبذول كمنزلة الزهد في الدنـــيا، ومنزلة عداوة النفس، هناك منازل ومقامات تقوم على الجهد المبذول الـــذي تحفـــه المنة بعين الرحمة وعين اللطف وعين الإجلال كمنزلة قطع الهوى، ومنزلة الخشية ومنزلة القربة .

ومما يلحظ بوضوح أن محيي الدين بن عربي يلتقي مع الحكيم الترمذي فيما ذهب إليه من أن منزلة التوبة تقوم على الجهد المبذول والمنة .

يقول ابن عربي في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ فهذه الأولى توبة امتـــنان، فـــإذا تاب عليهم بالمغفرة بعد توبتهم كانت هذه التوبة الإلهية جزاء يتخلص الامتنان الإلهي فيها إلا على بعد وهو أن يرجع العبد في توبته إلى التوبة الأولى الإلهية التي جعلته أن يتوب وتوبة امتنان أيسر من توبة الجزاء، وهي توبة الجواد الواهب المنان الذي يعطي لينعم لا لعلة موجبة عقلا وشرعا. إذن التوبة الأولى مـــن الله ابتداء يهب بها للعبد العمل على استغفاره حتى يصل بهذا العمل إلى التوبة الثانية التي استحقها على عمله.

ويذكر الهجويري أن أبا حفص الحداد قال :" ليس للعبد في التوبة شيء لأن الـــتوبة إليه لا منه "وبهذا القول لا تكون التوبة من كسب العبد لأنها موهبة من مـــواهب الحق سبحانه وتعالى، وهذا القول يتعلق بمذهب "الجنيد" . ولعلنا نفهم من وراء ذلك أن كثيرا من السالكين يذكرون أن التوبة منة من الله تعالى ابتداء فلو انفتحت أبعاد النفس على هذه الآفاق الرحبة، واستوعبت العقول ما تحمل كلمـــة التوحـــيد من معان وصفات تختص بها الذات الإلهية وعاشت في ظلال أشعتها، وأنسياب أنوارها لأدرك الإنسان أنه يعيش في ظل آثار هذه الصفات،

وأنهـــا حقائق تتجلى في عالم الوجود، وأنها ذات صلة بكيان الإنسان ووجوده. ولأدرك أن لكـــل صـــفة ربانـــية متجلية فيوضات تسد ثغرة في نفس الإنسان وتجسد أملا في حياته، لذا فإن السعادة ستغمره وسيشعر بمعنى الوجود كاملا لو أنـــه عـــاش يـــستوحي فيوضاتها، ويملأ ثغرات نفسه من آثارها. وعند الحكيم الترمذي لا يستحق العباد منزلة التائبين إلا :

ــــ إذا استحكموا باب التوبة بنزوعهم عن جميع المعاصي التي كانوا عليها مقيمين .

ــ وتداركوا ما سلفت منهم في الأيام الخالية .

ــــ وتتـــبعوا بالإصلاح على استفراغ مجهودهم وحسب طاقتهم برد المظالم وتحللها من أربابها.

ــ وتلافوا ما فرطوا فيه من المفروضات بالإعادة والإتمام لها .

حتى إذا بلغوا إلى المبلغ الذي لا يحيك في صدورهم شيء من الماضي ولا من الذي هم عليه مقيمون من أن يكونوا قد خرجوا إلى الله من حقوقه التي أوجب علـــيهم، وألزمهم حسب وسعهم فعندها استوجبوا اسم التائبين واسم المتقين وهـــو أدنى منازل المريدين لله، والسائرين إليه" وليس هذا الفهم الذي يشير إلى أن الـــسالكين إذا بلغوا مبلغاً يخرجون فيه إلى الله يستوجبون اسم التائبين ليس هذا الفهم الذي ذكره لنا الحكيم الترمذي مفروضا على الإسلام أو غريبا عنه بل هو روح الإسلام .

فنظرة الحكيم الترمذي تنطلق من الإسلام حيث يقرر أن للعباد حقا على الله كتبه الله على نفسه إذا عبدوه ولم يشركوا به أن يدخلهم الجنة .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُـــونَ فِـــي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَـــوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وقال رسول الله ﷺ "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا

يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئا".

وهؤلاء الذين يستحقون اسم "التائبين" واسم "المتقين" عند الحكيم الترمذي تكون قلوبهم مصغية إلى الآمر والزاجر كلما أمروا ائتمروا وكلما زجروا انزجروا، ويفسر الحكيم الترمذي "الآمر والزاجر" الذي تصغى إليه قلوب التائبين والمتقين بأنه "واعظ الله في قلب كل مؤمن" يقول الحكيم الترمذي: "وبهذا جاءنا الخبر عن رسول الله ﷺ وهو الشاهد الصدق من الله ألا تسمع إلى ما أومأ إليه رسول الله ﷺ حيث أتاه السائل عن البر والإثم فقال :"البر ما أطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في صدرك وتردد".

ولا يفوت الباحثين: أن يعرفوا أن التائبين الذين استحقوا اسم "التائبين" عند الحكيم الترمذي، هم من كانت توبتهم "مقبولة" فلا يدخل في الاستحقاق إلا من قبلت توبته لأن التوبة عند الحكيم الترمذي على ثلاثة أوجه : توبة مقبولة، وموقوفة، ومردودة، فعلامة المقبولة حلاوة الطاعة وأهلها، ووحشة الذنوب وأهلها، وأما الموقوفة فعلامتها ألا يجد حلاوة الطاعة بل يجد ألم الطاعة، وأما علامة المردودة فالعجب والكبر ولعلنا نفهم من علامات التوبة المقبولة :

ــ حلاوة الطاعة وأهلها.

ــ ووحشة الذنوب وأهلها.

إن التوبة عند الحكيم الترمذي لا يكفي أن تكون مقبولة بطلب توبة الجوارح عن الذنوب، وإنما لابد من تنقية القلب تنقية كاملة مما ران عليه مما اكتسبه الإنسان من الآثام. إن الحكيم الترمذي يكشف عن منهج ذوقي في السلوك له شأنه، حيث يعبر عن ذلك الصراع الخفي بين الإقدام والإحجام في أدق تعبير "حلاوة الطاعة ووحشة الذنوب ".

ومن هنا نفهم أن منزلة التوبة عند الحكيم الترمذي من الناحية السلوكية تهتم اهتماما كبيرا بالجانب النفسي في أعماق الإنسان، لأن التوبة تعبر بكل مظاهر تحققها عن موقف نفسي أخذ ينمو في داخل الإنسان ويمتد إلى خارجه

بـــشكل تـــصحيح سلوكي ومواقف إنسانية مستقيمة في محاولة مخلصة لإعادة مـــوازنة الـــنفس إلى حالتها الطبيعية وتفجير ينابيع الخير في طرق النفس النامية باتجاه الإنسانية السليمة .

الزهد في الدنيا

إن الزهد :أصل يدل على قلة الشيء، والزاهد قلت في عينه الدنيا والزهيد الـــشيء القلـــيل وكلمتا "زهد" و "زهاد" أصبحتا علما على طائفة مع مطلع النـــصف الـــثاني من القرن الثاني للهجرة، وكان هؤلاء الرواد ممثلين بطائفتين يصورون الحياة الزاهدة في عصر الرسولﷺ طائفة الفقراء وطائفة أهل الصفة.

ذكرت الدكتورة سعاد الحكيم مؤلفة "المعجم الصوفي" أن ابن عربي انفرد في النظر إلى الزهد وتعظيمه حيث جعله من بدايات الطريق واستندت إلى نصوص وردت عن ابن عربي منها قوله : "وهو" "الزهد" من المقامات المستصحبة للعبد.

وقـــد وجـــدنا أن القـــول بانفراد ابن عربي يجعل الزهد مقاما من مقامات السالكين فيه قصور حيث إن الحكيم الترمذي قد سبق ابن عربي في ذلك حيث جعل المترلة الثانية من منازل العباد السالكين هي "ومترلة الزهد في الدنيا". مترلة الـــزهد في الدنيا تأتي عند الحكيم الترمذي بعد مترلة التوبة . يقول الحكيم :"إن لله عـــبادا قطعـــوا هـــذه العقبة فتخطوا إلى الزهد في الدنيا لما استنارت قلوبهم بالـــتطهير من الذنوب . فأنت ترى أن مترلة الزهد تلي مترلة التوبة التي طهرت القلـــوب من الذنوب فاستنارت وبعد ذلك يبدأ التائبون بالنظر إلى باطن الدنيا بأبـــصار قلـــوبهم، فـــيهجمون على دناءتها وعيوبها ومحاتف مهاويها فيعافونها ويستقذرون ذكرها ويتجنبون أسبابها . فالزهد مرتبة قلبية .

والـــزاهدون عـــند الحكيم من قلت في أعينهم الدنيا بما فتح لهم من الغيب فرأوا الآخرة ببصر قلوبهم فاستقلوا هذه الدنيا، وتهاونوا بها وشخصوا ببصرهم إلى ضامن الرزق الذي ضمن لهم رزقهم، ووثقوا بضمانه فهم على ثقة من ربهم

في شأن الرزق فسكنت قلوبهم، وأمنت القوت . ويستدل الحكيم الترمذي فيما ذهـــب إليه بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والتي منها قوله تعالى لمحمد ﷺ :﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فلا تتعد بنظرك إلى ما متعنا به أصنافا من الكافــرين. لأن هـــذا المتاع زينة الحياة الدنيا وزخرفها، يمتحن الله به عباده في الدنيا ويدخر الله لك في الآخرة ما هو خير وأبقى، من هذا المتاع.

ومن الأدلة التي يستدل بها الحكيم الترمذي ما روي عنه ﷺ في قوله:"الدنيا ســجن المؤمن وجنة الكافر" فالمسجون همته الخروج. يقول الحكيم الترمذي: فالداران خلقتا للآدميين فهذه دنيا وتلك آخرة. وسميت دنيا أدنى إليك من تلك وسمـــيت في موضـــع آخر : أولى فقال في تنزيله:﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ وسميت في موضع آخر عاجلة، وتلك آجلة. فهما داران إحداهما: ثواب لأعمال هـــذه الـــدار، فنعيم تلك الدار ثواب دائم لا ينقص ولا يفنى أبدا، ونعيم هذه الدار من بشارة تلك الدار وهي بلغة ومتعة وزاد وأهلها مجتازون إلى تلك الدار فمـــن ترك العبودة وذهب برقته فضيع أمر الله وفرائضه وتعدى في حدوده بهذه الجـــوارح السبعة "بطنه ولسانه وفرجه، ويده، ورجله، وسمعه، وبصره، فقد هيأ لـــه سجنا مشحونا بغضبه وسخطه وناره وألوان العذاب فإنما ذم من الدنيا كل شيء خلا من طاعة الله عز وجل، فإذا عصى الله تعالى بذلك الشيء ذهبا كان أو فضة أو مأكولا أو مشروبا أو ملبوسا، فتلك دنيا مذمومة..

ومما يستدل به الحكيم الترمذي ما ذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال :"الدنيا ملعـــونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما آوى إليه" يقول الحكيم بعد أن استدل بالحـــديث الـــشريف : يعـــني الطاعـــات وجميع ما ابتغي به وجه الله تعالى من الأعمال، فهو الذي يأوي إلى ذكر الله عز وجل. فكم من درهم عصي الله تعالى به فتلك دنيا مذمومة غرته حلاوتها، فأمسكه لنهمته حتى عصى الله فيه، وآخر ملكه لله، وأمسكه له، حتى أنفقه في حق فأطاع الله فيه، فتلك آخرته، عملها في

دار الدنــيا، وقال في تنزيله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُــرِيدُ ثُــمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًاوَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَــعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ فالكافر همته في الدنيا وما فيها وهو عن الآخرة غافل، والمؤمن همته الآخرة وما فيها".

وإذا تأملنا فيما جاء عن أبي سعيد الخراز في "الزهد" وجدنا أن الزهد عنده "نفي الرغبة في الدنيا عن القلب شيئا بعد شيء" وأن الزاهدين على معان شتى:

ـــ فمنهم من زهد لفراغ القلب من الشغل وجعل همه كله في طاعة الله تعالى وذكره وخدمته، فكفاه الله عند ذلك .

ـــ ومنهم من زهد لخفة الظهر وسرعة الممر على الصراط إذا حبس أصحاب الأثقال للسؤال .

ـــ ومنهم من زهد رغبة في الجنة واشتياقا إليها، فسلى عن الدنيا وعن لذاتها حتى طال به الشوق إلى ثواب الله تعالى .

ـــ وأعلى درجات الذين زهدوا في الدنيا، هم الذين وافقوا الله تعالى في محبته فكانوا عبيدا عقلاء عن الله عز وجل .

فالــزهد عند الخراز: نفي الرغبة في الدنيا، وأعلى درجات الذين زهدوا في الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى سبحانه وتعالى في محبته، وما جاء عن أبي سعيد الخراز قريب مما ذكره الحكيم الترمذي.

وإذا كــان الزهد عند الحكيم الترمذي وأبي سعيد الخراز : الإقلال من شأن الدنــيا ونفي الرغبة فيها فإن ابن عطاء الله السكندري يوجب مقام الزهد عنده للــزاهد أن يخرج من قلبه حب الدنيا وحسد أهلها على ما هم فيه. يقول ابن عطــاء الله الــسكندري: "كفى بك جهلا أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا وتــشغل قلبك بما عندهم فتكون أجهل منهم لأنهم اشتغلوا بما أعطوا واشتغلت أنت بما لم تعط" .

وإن الــباحث يجد أن زهد السالكين عند الحكيم الترمذي يتجه نحو الإقلال من شأن الدنيا وعدم تعلق القلب بها .

وتلــك نظرة حكيمة يعود بها الحكيم الترمذي إلى قوله تعالى:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُــبُّ الــشَّهَوَاتِ مِــنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَــيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ .

يقــول الحكيم بعد ذلك :"فوصف الجنات مع الخلد فيها والأزواج المطهرة والرضوان يزهدهم في هذه ويقللها في أعينهم" .

ويذكر الحكيم الترمذي :"أن من لم يفتح بصره في الآخرة وعظم قدر الدنيا في عينه حتى وجد شيئا منها احتدت مخاليبه فيها، وعلق قلبه بها، ولم يستبن عند قلــبه ضــمان الرزق، وكلما ذكر الفقر أوجس في نفسه خيفة فركن إلى ما في يده، فهذا وإن جانب الدنيا ولبس المسوح وأكل الحشيش فليس بزاهد وإنما هو متــزهد" فنظرة الحكيم كما نرى تتوجه إلى الظاهر والباطن، وترسم للسالكين طــريق الــسلوك عند الوصول إلى المترلة الثانية مترلة "الزهد في الدنيا" حيث يتوجه السالك في ترقيه إلى إفراغ القلب من التعليق بالدنيا، لينعم بالآخرة التي أبــصرها ببــصر قلبه حين فتح الله عليه، وحيث يرى السالك أن الدنيا قليلة بجانب ما في الآخرة من خير .

عداوة النفس

النفس عند الحكيم الترمذي :"أرضي شهواني، ميال إلى شهوة عقب شهوة، ومنــية على أثر منية، لا تهدأ ولا تستقر، فأعمالها مختلفة لا يشبه بعضها بعضا، مرة عبودية ومرة ربوبية، ومرة استسلام ومرة تملك، ومرة عجز، ومرة اقتدار، فإذا رضيت النفس وذللت وأدبت انقادت".

ويذكر الهجويري أن "المتصوفة متفقون على أن النفس في حقيقتها منبع الشر وقاعدة السوء وهم متفقون على أنها السبب في ظهور الأخلاق الدنيئة والأفعال المذمــومة وهــذه على قسمين أحدهما : المعاصي، والآخر: أخلاق السوء، مثل

الكبر والحسد والبخل، والغضب والحقد، وما يشبه هذا من المعاني المذمومة في الشرع والعقل ويمكن دفع هذه الأوصاف عن النفس بالرياضة مثلما تدفع المعصية بالتوبة" .

والسالكون الطريق، والمريدون الله عز وجل الذين قطعوا عقبة الزهد في الدنيا، لابد وأن يواجهوا نفوسهم لأن النفوس مسارب ومسالك قد تفسد على السالك وقته وحاله .

يقول الحكيم الترمذي :"إن لله عبادا قطعوا هذه العقبة، ونصبوا العداوة لأنفسهم في ذات الله" .

ويذكر الحكيم أن "المؤمن قد ابتلي بالنفس وأمانيها، وأعطيت النفس ولاية التكلف بالدخول في الصدر، والنفس معدنها في الجوف وموضع القرب وهيجانها من الدم وقوة النجاسة فيمتلئ الجوف من ظلمة دخانها وحرارة نارها، ثم تدخل في الصدر بوسوستها وأباطيل أمانيها ابتلاء من الله إياه، حتى يستعين العبد بصدق افتقاره ودوام تضرعه لمولاه" .

والنفس اسم جنس وجوهر بعضها أطيب من بعض وبعضها أخبث من بعض وأشد ظلما وأكثر فجورا وهي النفس الأمارة. والنفس طابت بنور ظاهر الإسلام من خبث ظاهر النفس وهي تزداد طيبا بصدق المجاهدة إذا قارنها توفيق الله تعالى.

فمنزلة عداوة النفس ـــ عند الحكيم الترمذي ـــ تأتي بعد قطع منزلة "الزهد في الدنيا" والنفس لها خدعها ومكايدها وولوعها بما ذم الله وزجر عنه، لا لها دعة ولا حياء ولا وقار، ولا طمأنينة وإنما هي كالبهيمة لا ترفع رأسها حتى تقضي نهمتها وحاجتها من الدنيا .

ويقول الحكيم الترمذي : إن الله سبحانه وتعالى أنبأنا في تنزيله شأن النفس فقال : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ .

ولم نجد في التنزيل خصلة مذمومة إلا وهي منسوبة إلى النفس : قوله :﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ .

وقال:﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ وقوله عز وجل :﴿ قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ وقوله عز وجل :﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾.

وبعد أن يستدل الحكيم الترمذي بهذه الآيات يقول :"أي كثير ينبئك أن النفس مأوى كل سوء " وبعد ذلك ينتقل الحكيم إلى الاستدلال على شأن النفس بما جاء في الخبر فيروى عن رسول الله ﷺ أنه قال :"ليس عدوك إن قتلك أدخلك الله به الجنة، وإن قتلته كان لك نورا، ولكن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك" .

ومما يجدر أن نعني به أن النفس عند الحكيم الترمذي : نفسان : نفس ظاهرة ونفس باطنة. فأما الباطنة فهي المذمومة، وأما الظاهرة فهي تابعة لمن قادها وغلب عليها واستولى .

يقول الحكيم ومن ذلك قوله تعالى فيما يحكي عن شهادة يوسف بالسوء فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ .

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ . فإنما تجادل النفس الظاهرة النفس الباطنة وقوله :﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ وقوله ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ فهذه صفة النفس الباطنة.

أرأيت كيف كان الحكيم دقيقا في الكشف عن صفة النفس الباطنة أنها كما يقول الحكيم "دار حرب" أما النفس الظاهرة فهي تابعة لمن غلب عليها واستولى فإن غلب عليها الملك وهو النور والعقل كانت تابعة لهما، وإن غلبت عليها النفس الباطنة وانقادت لها فمن قوله : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ .

لغلبة الملك عليها ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ . وذلك أن هذه الباطنة هي نفس الشيطان ولها شأن".
وإذا كان ذلك صفة النفس الظاهرة وصفة النفس الباطنة، فإن طريق أهل الإنابة شاق صعب السلوك.

ولذلك كان لابد للمريدين السالكين من اجتياز الطريق، ولا يتحقق ذلك تحققا تاما إلا بمواجهة المرء نفسه مواجهة حاسمة .

ولا شك أن الباحث في مذهب الحكيم الترمذي في "النفس" حيث إنها تابعة لمن غلب عليها واستولى يجد أن مذهب الحكيم فيما ذهب إليه غير مذهب الملامتية ..

حيث يتهمون النفس ويلومونها في كل ما يصدر منها من قول أو عمل أو يخطر لها من خاطر، وقد وقفوا من النفس موقف الاتهام والخصومة دائما، فلا يرون للنفس معصية إلا اعتبروها من شيمتها، ولا طاعة إلا شكوا في إخلاصها فيها، وتوجسوا خيفة من أمرها، والنفس في أصل طبيعتها في نظرهم مجبولة على الجهل والمخالفة والرياء، فإساءة الظن بها طريق لكشف خباياها وإظهار نزعاتها .. ولا شك أن هذا إغراق قد يبدو في نظر البعض مغالاة لا مبرر لها، كما يبدو الاستغراق فيه صارفا عن الاستشراق إلى آفاق أعلى وأوسع .

وعلى الرغم من اتفاق الحكيم الترمذي مع الملامتية في نظرته المبدئية إلى النفس واتهامها، ومن كونه ذا مذهب في رياضتها وتأديبها إلا أن الحكيم لا يقبل نظرة الملامتية التي تحصر المريد في هذا المنهج وحده فتصرفه عن منهج آخر بتكامل معه. ولهذا يقول :"ووجدنا العلم نوعين :

ـــ نوع منهما العلم بالله تعالى .

ـــ نوع منهما العلم بالنفس ودواهيها وعيوبها .

فإن اشتغل العبد بمعرفة العيوب بقي عمره فيها، وفي التخلص منها .

وإن اشتغل بمعرفة العلم بالله كان ذلك دواءه. لأن علمه به يؤديه إلى حياة قلبه، وإزهاق نفسه، فإذا زهقت النفس بما ورد عليها من التجلي حي القلب بربه".

فالحكيم كما ترى يحذر من الاشتغال بالنوع الأول من العلم لأن الإنسان لو شغل نفسه بذلك العلم لقضى عمره كله في هذه المحاولة دون أن يصل إلى ما يريد، ولم يتيسر له فرصة يتعرف فيها إلى الله .

أما العلم بالله تعالى فإن فيه الدواء الناجع والسبيل القويمة إلى الفوز بالقرب من الله .

وذلك أن النفوس مبناها ـ كما يقول الحكيم ـ على سبع : على الشهوة والرغبة والرهبة والغضب والشك والشرك والغفلة فإذا حي القلب بالإيمان خرج من هذه السبع قلبا، وهي في النفس بواقي ثم تصير هذه السبع في الصدر غطاء على القلب يتراءى في كل أمر وعلى كل حال، ثم لا يزال العبد في مزيد من ذلك ينور الله الإيمان في قلبه، فبقدر ما يستنير في صدره يذوب هذا الغطاء عن قلبه .

وينكشف له عن حقائق الأمور حتى يصير من أهل اليقين، فإذا أيقن تلاشت هذه النفس وذهبت فصارت الرغبة إليه، والرهبة منه والغضب له . ويذكر الحكيم الترمذي أن ابن آدم مطبوع على سبعة وهي : الغفلة، والشك، والشرك، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب فهذه سبعة أخلاق، فإذا جاء نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحده ذهبت الغفلة وذهب الشك والشرك فهو يعلم ربه يقينا وينفي عنه الشرك وزال الشك عنه، ثم لما جاءت الشهوة فأظلم الصدر بدخانها ونيرانها ذهب ضوء عمله واستنارته وتحير في أمر ربه عز وجل كالشك، وظهر شرك الأسباب فكلما ازداد العبد معرفة وعلما بربه عز وجل واستنار قلبه وصدره انتفض من الغفلة، ومن هذه الخصال السبع

كلـــها حتى يمتلئ صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله فعندما كشف الغطاء، وصـــار يقيـــنا وزايله شرك الأسباب وماتت الشهوة وذهب الغضب، وذهبت الـــرغبة والرهبة فلا يرغب إلا إلى الله عز وجل ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا في ذات الله عز وجل، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل.

فالحكـــيم يـــشير إلى عناصر النفس السبع وهي الشهوة، والرغبة، والرهبة، والغـــضب، والشك، والشرك، والغفلة، ويجعل مقابل هذه العناصر نور الإيمان الـــذي يـــذهب هـــذه الحجـــب عن القلب "فإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها، وسلطان العقل وزينته وبهجته، احتد الذهن، واستنار بالعلم، وانتشر وأشرق وقوي القلب، فقام منتصبا متوجها بعين الفؤاد إلى الله تعالى، وجاء المدد والعطـــاء وظهرت العزيمة على ترك المعصية العارضة، فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس، ورفض ما عزمت عليه، فانقمعت النفس وذابت، وســـكن غليان الشهوة، وماتت اللذة، وسكنت العروق، فالسلكون المريدون الـــذين وصـــلوا إلى مترلـــة عـــداوة النفس أمروا بمجاهدة النفس، وندبوا إلى رياضتها. فراضوا أنفسهم وأدبوها بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه كهيئة المضطر حتى ذبلت واسترخت، فكلما مـــنعوها شـــهوة أتـــاهم الله على منعها نورا في القلب فقوي القلب وضعفت الـــنفس، وحي القلب بالله جل ثناؤه وماتت النفس عن الشهوات، حتى امتلأ القلب من الأنوار، وخلت النفس من الشهوات، فأشرق الصدر بتلك الأنوار، فجلب على النفس خوفا وخشية وحياء .

واســـتولى على النفس وقهرها، فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التي أعطيت القلوب بما فيها من المعرفة .

فالحكيم الترمذي بشفافيته النفسية، ودقة فهمه للنفس الإنسانية كان من أبرز من تعرف إلى سمات الشخصية الإنسانية : "النواحي الخلقية والعادات، والميل، وأساليب السلوك المكتسبة لارتباط الخلق بأساليب السلوك" .

ولقد كانت نظرة الحكيم الترمذي إلى منزلة عداوة النفس تقوم على أن الرذائل عيوب نفسية تحد من تكامل السلوك، وتسيء إلى سمات السالكين. وقد نبه الحكيم إلى أن الأكياس هم الذين يعرفون مكر النفس، وخدعها ومن شأن القائم أن يراقب أحوال النفس في هذا المكر الذي يعامل به فيلقى كل حال وكل شأن يمثلها من الكياسة، حتى يردعها عن وجهتها التي قصدت إليها.

والنفس حين يحال بينها وبين تحقيق رغباتها ومشتهياتها تسلك إلى تحقيقها كل وسيلة ممكنة . ولو عن طريق التلبيس على صاحبها .

ـ فإذا منعت من شهوات المعاصي لجأت إلى شهوات المباحات .

ـ وإذا منعت من شهوات المباحات لجأت إلى شهوات الطاعات .

ـ وإذا منعت من شهوات الطاعات لجأت إلى ما في أنوار العطاء الإلهي تختلس منها نصيبا تشارك القلب فيه، فتفسد عليه أمره، وتنغص عليه تدبيره وهي تلجأ من أجل التوصل إلى ذلك إلى حيل ماكرة تستدرج بها صاحبها لكي يتهاون في حراستها .

ولا يخفى أن شيخنا الحكيم كان عالما بالنفس، وفهم أمراضها وخباياها عارفا بعللها وهواجسها، ولهذا لم يترك السالكين دون أن يكشف لهم عن أمراض النفس وآفاتها .

ومن الإنصاف أن نذكر : أنه من الممكن اعتبار الحكيم الترمذي مؤسسا لعلم النفس الإسلامي، فقد استخدم تأمل الذات في مجال الشعور استخداما دقيقا كما لم يقنع بما يبدو ظاهرا من النفس، وإنما تعمق في باطن النفس كما أدرك ظاهرها وظواهرها ووصل إلى معرفة كوامنها وشهواتها. وقد جاءت

رسالة "مكر النفس" التي وضعها الحكيم الترمذي تعرض قضايا النفس وخدعها، حين يحال بينها وبين تحقيق ما ترغب وتشتهي كما تضع للمريدين في سلوكهم إلى الله كيفية مواجهة حيل النفس وخداعها .

ولأهمية ما جاء عن الحكيم فيما تأتي به النفس سنتناول ذلك واحدة واحدة.

يقول الحكيم الترمذي عن ما تأتي به النفس المريد :

1 – فإذا أتته المريد – من قبل النعمة تريه سبوغها عليه، وأن الله قد جعل ذلك به . وخار له فيه لقيها بالكياسة .

فالنفس حين يحال بينها وبين مشتهياتها قد تمكر وتتحايل على السالك بأن ما تم عليه من النعمة واتسع علامة على علو منزلته، ولا شك أن سبوغ النعمة قد يكون امتحانا واختبارا، وكان لابد للسالك من مواجهة هذه الحيلة، ولا يكون ذلك إلا بالكياسة التي تسد على النفس كل طريق.

2 – وإذا أتته من قبل المعونة : أن سعة الدنيا معونة على الدين لقيها بالكياسة وتلك كما ترى حيلة أخرى، بل من أشد الحيل دهاء حيث تحاول تصوير سعة الدنيا على أنها معونة على الأخوة وعبادة الله .

3 _ وإذا أتته من قبل طيب النفس بالأحوال الملائمة لو لقيها بأثقال الشكر المقرونة بكل حال تطيب بها نفسه .

وتلك حيلة تأتي للسالكين عندما يمنحهم الله سبحانه وتعالى تنازلاته وعطاياه فتقوم النفس بتزين التمتع بهذه الأحوال، وما على المريد إلا أن يواجه ذلك بأثقال الشكر .

4 – وإذا أتته من قبل الجاه والقدر والمنزلة لقيها بأن الجاه جاه الآخرة والقدر والمنزلة حيث يترلهم غدا في تلك العرضة من الأحوال .

وتلك حيلة تتحايل بها النفس على من اشتهر من المريدين، فتحاول أن تلهيه بــتلك الشهرة، لتصرفه عن القدر والمترلة في الآخرة، وعلى المريد أن يتنبه لمثل هذه الحيل المهلكة فيقابلها .

5 _ وإذا أتـــته من قبل النفس ودوام العافية، لقيها بأحداث الزمان، وتحول العافية حتى يلجأ إلى الله ولا يطمئن إلى ما دونه ولا يركن .

6 _ وإذا أتته من قبل دول دنيوية لقيها بأن الدولة دول بين الخلق ومتوارث فإذا تمت هذه الدولة فكأن لم تكن فولي الدولة يداولها بين عباده .

7 _ وإذا أتته من قبل جري الأمور على محابه لقيها بأن المنهوم مستبد .

8 _ وإذا أتته من قبل بسر الطاعات وعصمة المعاصي لقيها بخوف الزوال .

9 – وإذا أتته من قبل كثرة أعمال البر وتجنب أعمال البغي في الظاهر لقيها بأن الأمر ليس بكثرة الأعمال وتجنب السوء الشأن في صحة القلب .

10 ــ وإذا أتته من قبل غزارة العلم وكياسة العمل لقيها بتأكد الحجة .

11 _ وإذا أتته من قبل صدق الأعمال فيقول: لا أدري أيقبل مني أم لا؟ .

12 _ وإذا أتته من قبل العطايا لقيها بالغرام .

فالحكـــيم الترمذي يرتب مسائل ما يمكن أن تأتي به النفس من مكر وحيل ترتيبا مع حال المريد .

ومعنى هذا أن حيل النفس كثيرة ترتبط بالأحوال الدنيوية وغيرها .

ولكـــن لابـــد من التصدي لهذه الحيل وذلك عن طريق الكياسة. بالكياسة تـــصير القلوب متحررة من الائتمار بما تأمر النفس، وتشير إليه. وتصير النفس معـــزولة عن إمرتها، وعندئذ ــ كما يقول الحكيم الترمذي ــ "يستوي القلب ملكـــا علـــى ســـريره، والروح ترجمانه، والعقل وزيره، والأمر والنهي للملك والراعي والروح، والمدبر: العقل .

وقد كانت النفس من قبل في معدنها ملكا على القلب مطاعة فصارت بتوفيق الله للعبد مسلوبة المملكة، ساقطة المترلة مخيبة مقصاة فنجوا من آفاقها وخرجوا من دواهيها براة سالمين .

ولا يخفى أن الذين أنعموا النظر في رسالة "مكر النفس" للحكيم الترمذي وتابعوا حيل النفس التي ذكرها الحكيم، يجدون أن الذين واجهوا هذه الحيل بالكياسة وتصدوا لها بالانتباه والنظر هم أولئك الذين تمكنوا أن يلبسوا النفس ثوب المذلة، فورثوا بذلك حب الله مولاهم ومليكهم، وما ورثوا ذلك حتى أوجب الله لهم محبته. ويستدل الحكيم الترمذي على ذلك بقوله :"روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال :"حبك الشيء يعمي ويصم" .

فالدنيا ضد الآخرة فمن أحب الدنيا أعماه وأصمه عن الآخرة. ومن أحب الآخرة أعماه وأصمه عن الدنيا، والنفس تضاد ربها وتدعو إلى طاعتها. فمن أحب النفس أعماه وأصمه عن الله، ومن أحب الله أعماه وأصمه عن النفس فوجدنا هذا ميزان الخلق به يوزنون على درجاقم بحب النفس آيس عن كشف الغطاء والوصول إليه لأنه عدوه والمقبل على العدو معرض عن الله ومحب الله دافع باله عن النفس معرض عنها مقبل على الله .

وإذا كان الحكيم الترمذي يجعل من منازل القاصدين إلى الله "مترلة عداوة النفس" وينبه السالكين إلى مكائدها وخدعها فإن المحاسبي يطالب المريدين أن يعرفوا أنفسهم. "فاعرف نفسك فإنك لم ترد خيرا قط مهما قل إلا وهي تنازعك إلى خلافه، ولاعرض لك شر قط إلا كانت هي الداعية إليه، ولا ضيعت خيرا قط إلا لهواها ولا ركبت مكروها قط إلا لمحبتها فحق عليه حذرها لأنها لا تفتر عن الراحة إلى الدنيا والغفلة عن الآخرة.

وإذا كـــان المحاســـبي يطلـــب من المريد ان يعرف نفسه فإن ابن عطاء الله الـــسكندري يقول للمريد :"إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا".

وهـــذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس لأنها مجبولة على الجهل والشره فشأنها أبدا إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق .

وحظ النفس في المعصية ظاهر جلي وحظها في الطاعة باطن خفي فإذا وجد المـــريد مـــن نفسه ميلا وخفة عند بعض الأعمال دون البعض اتهمها وترك ما مالت إليه وخف عليها، وعمل بما استثقله .

ولا يكتفي ابن عطاء الله السكندري ببيان هذا الميزان الدقيق الذي يكشف عـــن الـــنفس في وضـــوح فتراه يجعل :"إحالة الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس". فإذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة، وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشـــغال، وقال إذا تفرغت عملت، فذلك من رعونة نفسه، والرعونة ضرب من الحماقة، وحماقته من وجوه :

الأول : إيـــثار الدنـــيا على الآخرة وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين وهو خلاف ما طلب منه .

الـــثاني : تسويفه بالعمل إلى أوان فراغه، وقد لا يجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله لأن الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض .

والـــثالث : أن يفرغ منها إلى الذي لا يرضيه من تبدل عزمه وضعف نيته ثم فـــيه من دعوة الاستقلال ورؤية الحول والقوة في جميع الأحوال ما يستحقر في جنبه جميع هذا.

فالحكـــيم التـــرمذي والمحاسبي وابن عطاء الله السكندري يلتقون في تحليل النفس وفي الغاية من هذا التحليل، حيث إن الغاية :

الوقاية من الشر ومن ارتكاب الذنوب ليمضي السالك في الطريق مستضيئا بنور الله .

ولا يخفى أن فهم الحكيم الترمذي وغيره من علماء السلوك لخطرات النفس الإنسانية وتنبيه المريدين إلى مكرها وحيلها ينفي عن التصوف أنه دعوة إلى السلبية والزهد المريض والهروب من قضايا الإنسان .

وتربية النفس عن طريق المجاهدة والرياضة والكياسة خطة إصلاحية نافذة فمخالفة النفس رأس جميع العبادات، وكمال كل المجاهدات ولا يجد العبد الطريق إلى الحق إلا بذلك .

المحبة

إن منزلة المحبة عند الحكيم الترمذي تأتي بعد منزلة عداوة النفس، يقول الحكيم في ذلك :"لله عباد قطعوا هذه العقبة فتركوا هذه النفس مزجورة منسية وصارت أرواحهم معلقة بالمحل الأعلى" .

فمنزلة المحبة جاءت بعد منزلة عداوة النفس في ترتيب مقصود حيث تركت النفس مزجورة منسية، فأصبحت الأرواح معلقة بالجناب الأسنى، والمحبة عند الحكيم "إنما سميت محبة لأنها خلصت إلى حبة القلب، وهو مجتمع العروق فجرت وشربت منها عروقهم حتى رويت".

فالمحبة ــ كما ترى ــ مأخوذة من الحب، وهو جمع حبة القلب، وحبة القلب محل اللطيفة وقوامها لأن إقامتها بها فسميت المحبة حبا باسم محلها لأن قرارها في حبة القلب.

والمحبون عند الحكيم صارت أرواحهم معلقه بالمحل الأعلى فذاقوا لذيذ العيش هناك، طعم حلاوته أنساهم طلب الأحوال في الدنيا : من الضيق والسعة، والعز والذل، والبؤس والنعمة والحار والبارد .

فهـــذه الأشياء جارية عليهم في دار الدنيا من غير اشتغال منهم بطلبها ولا بقـــوتها، ما وجدوا من ذلك كان بغيتهم قد انقطعت أطماع نفوسهم عن كلفة هـــذه الأشياء. فمحبة العبد لله سبحانه وتعالى صفة تظهر في قلب المؤمن المطيع بمعـــنى التعظيم والإكبار ليطلب رضا المحبوب، ويصير بلا صبر في طلب رؤيته وقلقا في الرغبة في قربه ولا يسكن إلى أحد دونه، ويعتاد ذكره، ويتبرأ مما سوى ذكـــره، وينقطع عن جميع المألوفات والمستأنسات، ويعرض عن الأهواء، ويقبل على سلطان المحبة، ويطيع حكمه، ويعرف الحق تبارك وتعالى بنعوت الكمال.

ويذكر الحكيم الترمذي : "أنه ليس شيء أحلى من حب الله فإذا وجد العبد حـــلاوة حب الله غرقت حلاوة أمور الدنيا في حلاوة الحب وتلاشت فعندها لا يريد العبد إلا ما يريد ربه .

وذلك قول الرسول ﷺ "حبك الشيء يعمي ويصم" . فكلما كسر العبد مشيئة من مشيئاته، واحتمل أثقال المكاره والغموم كان ذلك أكسر لمشيئة نفسه وأضـــعف فكلما انتقصت من ها هنا ازداد من حب الله حتى يذهب هذا كله ويبقى ذلك كله مستوليا على القلب فمحبة العبد لله عز وجل : الغاية القصوى للـــسالكين والسائرين في الطريق ولا يعبر عنها حقيقة إلا من ذاقها، ومن ذاقها استولى عليه من الذهول على ما هو فيه أمر لا يمكنه معه العبارة .

والـــسالكون الـــذين أقامـــوا في منزلة المحبة :"ما لهم أيام الحياة من همة إلا مناجاته وما لهم في الآخرة همة إلا عفوه.. وما لهم من الجنة همة إلا زيارته وما لهم من الزيارة همة إلا ملاقاته والنظر إليه .

وممـــا يجدر التنبيه إليه أنه لا يجوز أن تكون محبة العبد للحق من جنس محبة الخلق لبعضهم البعض، لأن هذه ميل إلى الإحاطة بالمحبوب وإدراكه وهذا حكم صـــفة الأجـــسام ومحبو الحق تعالى مستهلكون في قربه لا طالبون لكيفيته، لأن

الطالب قائم بنفسه في المحبة والمستهلك قائم بالمحبوب وأصدق الناس في معترك المحبة مستهلكون ومقهورون .

ولذلك يقول الحكيم :"وأما ذكر المنزلة الرابعة، فهم أهل الجنة والقربة، وهو قـــوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَـــبِيلِهِ ﴾. واتقـــوا الله في ترك الذنوب وابتغوا القربة في مجاهدة الهوى، لأن مجاهـــدة الهـــوى تطهـــير. وكلما تطهروا ازدادوا قربا فمجاهدة الهوى تطهير، وهـــؤلاء لمـــا تطهروا من الهوى والميلان عن الله استوجبوا عند الحكيم محبة الله فأورثهم حبه .

ومحبة الله سبحانه وتعالى للإنسان ـــ عند الحكيم الترمذي :

1 – إما أن تكون دون الإشارة إلى سبب استحق به العبد هذه المحبة، يقول الحكـــيم التـــرمذي :"فالحـــب سر الله تعالى في العباد، يفتح لهم من ذلك على أقدارهم بمشيئته بما سبق لهم من الأقدار منه".

ويذكر الحكيم أنك إذا أحببت أن تعرف الذين أحبهم الله فانظر إلى خصالهم التي وصفهم الله تعالى فقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾.

فـــبدأ بذكر محبته لهم، ثم ثنى بحبهم إياه ليعلم أن من حبه إياهم نالوا حبه، ثم وصف حالهم فقال :"أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين" أي ينكسرون عند كـــل حق، ويخضعون تواضعا لله يذلون عند المؤمنين ومعاملتهم ، وكذلك عن كـــل حق وباطل، فهم أذلة أعزة يذلون عند حقه، ويعزون لربهم عند الباطل ثم قـــال :" يجاهدون في سبيل الله" يجاهدون أهواءهم في العبودية "ولا يخافون لومة لائـــم" فتركوا النفس مطروحة في ناحية، منسية لا يبالون بها بالة من طلب جاه أو قدر أو منزلة في قلوب الخلق .

فالحكيم الترمذي في عرضه لمحبة الله للإنسان دون الإشارة إلى سبب استحق بــه العــبد هذه المحبة يبين لنا أن من حب الله للسالكين نالوا حبه. ويؤكد هذا المعــنى في موضــع آخر فيقول :"وأما الحب فإنهم نالوا حبهم له من حبه لهم". وهؤلاء الذين أحبهم الله تعرفهم من خصالهم التي بينتها الآية الكريمة .

ــ "أذلة على المؤمنين"	يذلون لربهم عند حقه
ــ "أعزة على الكافرين"	يعزون لربهم عند الباطل
ــ "لا يجاهدون في سبيل الله"	أهواءهم في العبودية
ــ "لايخافون لومة لائم"	فتركوا النفس مطروحة

2- وإمــا أن تكون محبة الله تعالى للإنسان قد نالها لاتباعه الرسول ﷺ وقد اســتدل الحكــيم الترمذي على ذلك بقوله تعالى :﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

يقــول الحكيم الترمذي : فاستخراج سرائر أهــل صدق محبته باتباعــهم محمداﷺ في جميع الأمر والنهي وفي جميع الحالات التي دلهم عليها فجعل اتباع محمد ﷺ علما لحبه .

فالحكــيم التــرمذي في منزلة "المحبة" يشير إلى أن حب الإنسان لله سبحانه وتعالى ينبثق عن حب الله عز وجل للإنسان، وحب الله عز وجل للإنسان أسبق مــن حب الإنسان لله سبحانه وتعالى، وحب الله تعالى للإنسان سر من الله سبق في مشيئته وتقديره .

وهناك كثير من الأحاديث النبوية يأتي بها الحكيم الترمذي في الموضوع منها ذكــره في كتابه "الأمثال من الكتاب والسنة" حيث قال : روي عن رسول الله ﷺ فــيما يروى عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى أنه قال :"ما تقرب إلي عــبدي بمثل أداء فرائضي، وإنه ليتقرب إلي بعد ذلك بالنوافل حتى أحبه، وما

يتقرب إلى عبد بمثل النصح فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله، وفؤاده فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يمشي، وبي يبطش، وبي يعقل"

ومما يؤيد محبة الله تعالى للعبد وأثرها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :" إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء، وإن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض"

ومن المؤكد عند الحكيم الترمذي أن :

ـ المحبة جرت من الله تبارك اسمه إلى عباده في اللطف فوصل إلى جميع خلقه فأحبوه وفرحوا به وبعباداته لمحبته، واللطيف رفيق، فلما جاءت الشهوات مالت بهم عن الله هكذا يمينا وشمالا فقالوا ربنا الله ثم لم يستقيموا .

ثم خرجت محبة أخرى في التوحيد إلى أهل المنة والاجتباء فأحبوه وفرحوا به والتوحيد ثخين ركين فلما جاءت الشهوات وتزين الشيطان ليميل بهم، لم يقدروا على ذلك ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ . فلم يشركوا ثم خرجت محبة ثالثة إلى أهل الصفوة فشبت قلوبهم، وغلت المحبة غليان المرجل فأحرقت حب الشهوات، ووفدت بالقلب إلى العزيز الجواد فشبت قلوبهم، فالله سبحانه وتعالى أبرز للعباد محبة ورأفة ورحمة، ووضعها عنده ليجرها إلى العباد، فمن وجده وأقبل إليه وأسلم وجهه لله صدقا أجرى إليه من هذه الثلاث بقدر ما وفى من هذه الثلاث ومن هنا كانت منزلة المحبة من منازل السائرين عند الحكيم الترمذي ليصل إليها السالك ويتدرج مصحوبا بنشاط متواصل متتابع نتيجة استعداد يجعل السالك يقوم بسلوك معين إزاء هدفه وهو الوصول إلى الله .

قطع الهوى

إن منزلـة قطـع الهوى ـ عند الحكيم الترمذي ـ تأتي مباشرة بعد منزلة "المحـبة" التي عرضنا لها في المنزلة الرابعة ونحن نتابع الحكيم الترمذي في وسائل السلوك .

يقـول الحكـيم الترمذي :"إن لله عبادا قطعوا هذه العقبة فبقيت لهم عقبة الهوى كلما هزموها وقهروها في منزلة من هذه المنازل وجدوها حية، فأمعنوا في اتباعها طمعا لإماتة الهوى وفقد رؤية النفوس في الأشياء". فالحكيم ـ كما نرى ـ يشير إلى أولئك السالكين الذين قطعوا منزلة "المحبة" ووصلوا إلى درجاها بأن علـيهم لكي يتمكنوا من قطع مراحل السفر أن يبادروا إلى قطع "عقبة الهوى" وإذا أردنـا أن نعـرف ماهـية الهوى عند الحكيم الترمذي فعلينا أن نعود إلى الحكـيم الترمذي وإذا عدنا إليه نجد قائلا يقول له : ما الهوى ؟ فيقول الحكيم الهـوى :"جوهرة النفس لأن آدم عليه السلام خلق من تراب فكان الهوى هو عنـصره الذي فيه جوهرته الترابية فكانت تلك الترابية متشبعة في النفس وهو صفوة غذاء الأم لأن التراب مظلم، وأمك ربتك من اللبن ومما أخرجت الأرض فإذا خرج الروح منك صار وجهك وجميع جسدك كأنه ذر عليه التراب لأنه لما زال الـروح تغير الجسد إلى جنسيته الترابية، فقد علم شهوات الأرض ولذاها وعرفها بذلك العنصر المظلم المتشعب، هناك له ميلان: يهوى إلى جنسه فسمي هـوى لأنه هوى به النفس، والنفس هوى بالقلب، والقلب يهوى بالإركان إلى نعيم الأرض لأنه من جنسه وإليه يحن وله يألف فهذه النفس مضطربة إذا حملت عليها أمر الله تعالى .

"الهوى هايجه من النار، ومرورها بالشهوات التي حفت بالنار، فتحمل الهوى مـن تلك الشهوات زينتها وأفراحها ولذاها ونعيمها إلى جوف هذا العبد حتى تؤويه إلى نفسه فإذا احتملت النفس صار مركبها الهوى، وعلى مقدمته الشهوة

قـــال تعـــالى:﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾. فركوب الهـــوى إنمـــا تركبه النفس فإذا ركبته النفس ركض بها الهوى إلى المكان الذي احتاج منه وهو نفس جهنم" .

"فالهـــوى يدعـــو الإنـــسان إلى قضاء الشهوات، ويميل به إلى اللذة والمتعة ويذهب بصاحبه إلى ادعاء الربوبية، ومن هنا ادعى فرعون الربوبية حتى يكون نافـــذ القول في شهواته ومناه جائز الأمر دعاه ذلك إلى أن يقول :﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ هذه ثمرته .

فالهوى يهوى بك إلى قضاء الشهوات، ودرك ما هو من جنسه فاحذره فإن الصغيرة الضعيفة منه تقوى حتى تصير كبيرة قوية، ترمي بك في أودية المهالك.

ولعلنا نفهم من كلام الترمذي أن الأهواء تقوم على قسمين :

الأول : هوى اللذة والشهوة .

الثاني : هو هوى السلطان والادعاء.

والـــسالك في سيره إلى الله رب العالمين في المراحل السابقة التي عرفناها من المـــنازل التي عرضنا لها عند الحكيم الترمذي كان يسير اقتدارا ورجولة معتدا بنفـــسه تحفه المنة الإلهية، فالتوبة والزهد وعداوة النفس والمحبة وسائل تحتاج من السالك إلى عزم وإرادة وتصميم ولكن الإنسان السالك لا يصل إلى الله بنفسه أو بعملـــه أو بحبه أو مجاهدته وإنما يصل إلى الله بالله . ولهذا كان لابد أن يتجرد السالك عن نفسه ليمضي قدما منخلعا عن فرديته فيرى السير إلى الله إنما يكون به وليس بشيء سواه. فيعمل على التخلص مما بقي في نفسه من الهوى .

وذلـــك أن يـــرى أن ما وصل إليه من منزلة ما كان بجهده، وإنما يرى هذا الـــسالك وغيره من السالكين "إنهم ملوا الحياة وبرموا النفوس وآسوا وتحيروا وصرخوا إلى الله من صدق القلوب باذلين له مجهودهم منكسرين مفتقرين إليه، قد تعروا من جميع الحول والقوة فنظر الله إليهم بعين الرحمة ولطف بهم، وكشف

عن قلوبهم الغطاء فتعلقت قلوبهم بالحجب الربانية فغذاهم برحمته فهي تسبح بهم في بحور من الثواب، ولا منتهى لهم عنده، ولا مخرج لهم منها، فقلوبهم كالملجم عرقا قد حجب أبصارهم من النظر إلى أهوائهم فالهوى فيهم محبوس في وثاق".

ولقد سئل الجنيد رضي الله عنه : ما الوصل ؟ فقال: ترك ارتكاب الهوى "فمن يريد أن يكرم بوصلة الحق، يجب أن يخالف هوى الجسد، لأن العبد لا يقوم بعبادة أبدا أعظم من مخالفة الهوى إذ إن حفر الجبل بالظفر أيسر على ابن آدم من مخالفة النفس والهوى.

فالحكيم الترمذي والإمام الجنيد يلتقيان في أن الوصل ترك ارتكاب الهوى ومن وصل عند الحكيم وصل باب الملك قلبه يقرع باب الملك بالتضرع والاستكانة فيخرج عليه من عطاياه وفوائده .

ومما يدرك بوضوح أن الحكيم الترمذي يستدل على منزلة قطع الهوى والتطهير منه بقوله تعالى :﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ . يقول الحكيم : أي من تطهر من الهوى فهذا مؤمن لا يخلط الفاسدات بالصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن فوصفه في أول الآية بالإيمان ثم ذكر الصالحات وهو الذي لا يشوبه شيء .

ويستدل الحكيم الترمذي كذلك بقوله تعالى :﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾. "أي تطهر فالطهارة من كل شيء يباعده منه، أو يحجبه عنه، ثم قال، عز وجل ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ . فمعرفته باسمه دعاه إلى التصلية له، وهو الوقوف بين يديه في نوائب أموره فأفلح "هذا العبد أي نجا بالتطهير من الهوى وخلص إلى قرب ربه" .

فـإذا فطم السالك نفسه عن طاعة الهوى حتى صار له عادة ألا يطيع الهوى في شـيء مـن الأشياء وإن أبيح له ذلك الشيء استنار قلبه باليقين، وهو نور مشرق في الصدر.

الخشية

إذا كـان طـريق السالك في منزلة "قطع الهوى والتطهير منه" هو الخضوع والخشوع والتذلل، والوقوف بالباب ليديم القرع، والتضرع إلى الله تعالى، فإن المنزلة السادسة "منزلة الخشية" هي منزلة كشف الحجب الربانية .

يقـول الحكيم الترمذي :"إن لله عبادا قطعوا هذه العقبة "منزلة قطع الهوى" "صـارخين إلى الله مستغيثين به، فنظر الله إليهم بعين اللطف فكشف إليهم عن الحجب الربانية حتى وصلت قلوبهم إلى معرفته" وحين وصلت القلوب وعرفت كانت الخشية: حيث وقع السالكون في فضاء عظيم وسعة بحار يسبحون فيها، ولا يجـدون لهـا منتهـى متحيرين منقبضين كالمحتشمين والمستوحشين لأنهم لما خلـصوا إلى ربهم التفتوا بما في أهوائهم في الحياة. فرأوا نفوسهم الدنية في ذلك المحل العظيم فتحيروا واستحيوا من ربهم، واحتشموا من الدنو، واستوحشوا من الحـال التي رأوا من إقبال الله عليهم، وعظيم صنعه بهم، وهربهم منه أيام الحياة فأقعـدهم الحـال عن جميع أمورهم وهابوه في ذلك المقام هيبة أيبست طراوة نفوسهم فنشفت طراوتها .

ولعلـه يفهم مما ذكره الحكيم الترمذي من أحوال أهل الخشية وصفاتهم أن الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه .

ويذكر الجرجاني في التعريفات : أن الخشية تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل يكون تارة بكثرة الجناية من البعد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته .

فالخشية عند الحكيم الترمذي لا تكون إلا من العلم بالله، والعلم بالله يؤديك إلى السلطان، وكما يؤديك إلى السلطان يؤديك إلى الرحمة، ويؤديك إلى الجلال، وكما يؤديك إلى الجلال يؤديك إلى الجمال، ويؤديك إلى العز والكبرياء، وكما يؤديك إلى الكبرياء يؤديك إلى الكرم، ويؤديك إلى الخطر العظيم من مكره وإلى هول المشيئة وكما يؤديك إلى ذلك يؤديك إلى الجود ويؤديك إلى الهيبة. وكما يؤديك إليها يؤديك إلى المحبة والأنس .

وبعد أن يذكر الحكيم ما جاء عن العلم بالله الذي لا تكون الخشية إلا به نجده يستدل على ما ذكر بقوله تعالى :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. يقول الحكيم : ثم قال على أثره ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. يعلمك : أن العلماء بالله يخشون الله لعلمهم بالله أنه جليل، فيخشون جلاله، ثم يمازج الخشية علمهم بالله، يخشون الله لعلمهم بالله أنه جليل، فيخشون جلاله، ثم يمازج الخشية علمهم بالله أنه عزيز غفور وذلك أن العزيز يأنف أن يخيب من يأمله أو يرد سائله أو يؤيس راجيه، والعزيز يعطي ولا يبالي من العطية .

فالخشية من الله سبحانه وتعالى لا تكون إلا من غزارة العلم بالله، وأعلم الخلق بالله أخشاهم لله، فعلامة العلم بالله عند شيخنا الحكيم خشيته وعلامة خشيته : طاعته .

وإذا كان الأمر ـــ كما ذكرنا ـــ فإن خشية الخلق لا تكون إلا من الجهل بالله عز وجل وسوء الظن به، وهذا كما يذكر الحكيم لمن خشي الخلق عن غفلة عن الله، وأما من خشي الخلق مخافة أن يسلطه الله عليه، فهذه خشية راجعة إلى خشية الله فهذا محمود .

يقول الحكيم الترمذي مستدلا على ما ذكر : ورسولنا محمد ﷺ عوتب في الخشية، فقال :﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ .حيث أخفى في نفسه

حاجـــته إلى زيـــنب وقال لزوجها ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وأبداها الله بأن أعلمه أن زينب ستكون من نسائه.

وكـــان يقال لزيد ابن محمد لأن رسول الله ﷺ تبناه فكره أن يقال: تزوج امرأة ابنه حتى نزلت :﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. ونزلت ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾.

فالله سبحانه وتعالى يعاتب رسولنا محمد ﷺ حيث قال لزيد بن حارثة الذي أنعـــم الله علـــيه بهداية الإسلام وأنعم عليه محمد ﷺ بالتربية والعتق : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش واتق الله فيها، واصبر على معاشرتها، وأخفى في نفـــسه مـــا الله مظهره من أنه سيطلقها وأن الرسول سيتزوجها، وخاف أن يعيره الناس، والله الجدير بأن يخافة ولو كان في ذلك مشقة عليه، فلما قضى زيد حاجـــته وطلقهـــا تخلصا من ضيق الحياة معها زوجه الله منها، ليكون قدوة في إبطال هذه العادة المرذولة ولا يتحرج المسلمون بعد ذلك من التزوج بزوجات من كانوا يتبنوهم بعد طلاقهن وكان أمر الله الذي يريده واقعا لا محالة.

والحكـــيم الترمذي لا يكتفي بالاستشهاد بآيات القرآن الكريم وما جاء في معاتبة النبي ﷺ فنراه يقول: وروى في الحديث عن رسول الله ﷺ :"أنه يقال للعـــبد يوم القيامة ما منعك إذا رأيت المنكر أن لا تغيره؟ قال : خشيت الناس قال: فإياي كنت أحق أن تخشى" .

ويقول النبي ﷺ :"إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية".

وإذا كـــان قد سبق لنا أن قلنا : إن الخشية عند الحكيم الترمذي هي خوف يـــشوبه تعظـــيم فإننا نجد أن الحكيم الترمذي يجمع ذلك الخوف والتعظيم في القـــشعريرة يقول : وتحقيق ذلك في كتاب الله عز وجل من قوله :﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ . فاحتراق الجلود تقشعر من المثاني يثنى فيها الوعيد مرة بعد مرة فالقشعريرة من

الوعيد ومن الخشية منه، ثم قال :﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾. فإذا ذكره بعد الوعيد اطمأن إليه ولان جلده وقلبه قد لها بذكره عن نفسه .

وإذا كانت الخشية عند الحكيم الترمذي لا تكون إلا من العلم بالله فإن ابن عطاء الله السكندري خير العلم عنده ما كانت الخشية معه .

فخـــير العلـــوم ما يلزم وجود الخشية لله تعالى معه، لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك، فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه ولا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة .

وابن عطاء الله السكندري يزيد الأمر وضوحا مبينا ما هو على الإنسان وما هـــو له فيقول :"العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك" فالعلم الذي تلازمه الخشية لك لأنك تنتفع به في دنياك وآخرتك، والعلم الذي لا خشية فيه عليك لأنـــك تستـــضر به فيهما وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا من حـــيث إن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والعزة.

وممـــا يفهـــم مـــن كلام الحكيم ورؤية ابن عطاء الله السكندري أن الحكيم الترمذي يجعل العلم أصلا أصيلا في السلوك، ولذلك يقول للسالك الذي سأله عـــن كيفية السلوك:"فأول ما يجب عليك طلب العلم". ولذلك كانت الخشية عنده لا تكون إلا من العلم بالله .

أمـــا ابن عطاء الله السكندري فيجعل العلم النافع أصلا لكن لا يكون نافعا إلا إذا قارنته الخشية، وكانت معه .

النفس الإنسانية كالجسم تسعد وتشقى، وتصح وتمرض، وتتسامى وتتسافل وهي كذلك كالجسم بحاجة إلى وقاية قبل الإصابة، وبحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة التي تنتاب النفوس المظلمة التي فقدت مناعتها فخارت قواها. ولهذا تناول الإسلام بالرعاية والعناية النفس الإنسانية فخطط لها مسارا ووضع لها منهاجا يستجيب لنوازعها الخيرة وينميها، ويحول بينها وبين دواعي الشر والانحراف بما وفر لها من أساليب الترويض والتهذيب الروحية والخلقية .

ومن تلك الوسائل "ذكر الله" تبارك وتعالى فإن حالة الذكر الدائم التي تطلبها الإسلام من المؤمن ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ (139). إن هي إلا حالة استنفار عام لكل الطاقات البناءة، والقوى الكامنة الرشيدة في الإنسان لأنه بالذكر الدائم تتقد جذوة الحب الإلهي في نفس الإنسان فيرتقي إلى عوالم الانشراح وساحات القرب، ويجوب رياض اليقين .

وإذا كان الذكر حالة استنفار فإن ذلك يعني الحضور ولذا قيل: "الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان وكل واحد منهما ضربان : ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان، بل عن إدامة حفظ... والفيروز آبادي يقول:"الذكر تارة يقال ويراد به هيئة النفس بها يمكن الإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول" .

فذكر الذاكرين الله سبحانه : هو الإحساس بوجوده وبدوام حضوره معهم تارة، أو تذكرة بعد النسيان والشعور بوجوده تارة أخرى.

والذاكرون الحافظون هم أولئك المستهامون بحب الله الممتلئة نفوسهم بحقيقة وجوده، والوهلة بجمال صفاته، الخاشعة لجلال آثاره المسبحة بحمده المقدسة له، والعاكفة على طاعته. فهم بين دائم الذكر لا يغفل وذاكر إذا أغفل لم يتماد

بغفلتــه ﴿إِنَّ الَّـذِينَ اتَّقَـوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ .

والذكر أساس أصيل من أسس السلوك إلى رب العالمين" يثمر المقامات كلها مـن اليقظة إلى التوحيد ويثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون فلا سـبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصـلها كـان أعظم لثمرتها وفائدتها... وهو أصل كل مقام وقاعدته التي يبنى عليها كما يبنى الحائط على أساسه، وكما يقوم السقف على جداره، وذلك أن العـبد إن لم يستيقظ من غفلته لم يمكنه قطع منازل السير الموصلة إلى معرفة الله تعالى التي خلق الإنسان لأجلها" فالذاكرون ــ امتثالا لأمر الله عز وجل ــ لا تشغلهم الدنيا عن محبوبهم نسوا أنفسهم بمجالستهم لربهم، وغابوا عن كل شيء سواه فتواجدوا عندما وجدوا .

فالعـارف من داوم على الذكر وأعرض بقلبه عن متع الدنيا الزائلة، فتولاه الله في جميع شئونه، ولا عجب فمن صبر ظفر ومن لازم قرع الباب يوشك أن يفـتح له . والحكيم الترمذي وهو يلزم السير والسلوك إلى ملك الملوك يحفظ القرآن الكريم فيجعله ذكرا لا يشبع منه .

يقـول الحكيم :"آلى علي حرص حفظ القرآن فأقامني ذلك بالليل فكنت لا أمل من قراءته حتى أنه كان ليقيمني ذلك إلى الصباح ووجدت حلاوته" .

ويقول الحكيم الترمذي عن سلوك الذاكرين معه :"فكان يكون لنا اجتماع بالليالي نتناظر ونتذاكر وندعو ونتضرع بالأسحار"

وفي أحد رسائل الحكيم الترمذي إلى ولي من الأولياء يوجه الحكيم هذا الولي في سلوكه بأن :"يشتغل بذكر الله تعالى بأي ذكر من الأذكار وأعلاها الاسم الله الله " .

لأن في الاشـــتغال بذكر الله تطل النفس على نور البصيرة في الرؤية الذي لا يعتـــريه غـــروب، وتتجلـــى للإنسان فيوضات الرحمة، ويستشعر جمال اللطف الإلهي، وسعة العطاء الرباني وغزارة الإفاضة السخية. والذاكرون أنساهم حب الله أنفـــسهم فتوجه كل وعي وشعور فيهم نحو الأحد المعبود فصار هذا الحب عطـــاء في نفـــس المحب، واستجابة في قلبه، لذا كان ضربا من ضروب العبادة، ومنـــبعا ثـــريا من ينابيع التوجه والشوق العميق إلى الله سبحانه. والذكر عند الحكيم الترمذي :"غذاء المعرفة والمعرفة حلوة نزهة، والقلب وعاؤها وخزانتها والصدر ساحته" .

وإذا كـــان الذكر عند الحكيم غذاء المعرفة، فما ذلك إلا أنه لا يمكن للروح الإنـــساني أن يطفـــح بالحب، أو يواصل مسيرة القرب إلا بعد أن تتكشف له حقائـــق المعرفة الربانية وتتجلى أمامه عظمة الصفات، وجمال الذات الإلهية فمع هـــذه المعـــرفة فقط يبدأ وعي الإنسان بالتفتح، والإحساس الروحي بالتذوق، والنفس بالانشراح والتلقي . ويلزمنا أن نعرض للقلب والصدر والعلاقة بينهما عـــند الحكـــيم لأن الذكر عنده غذاء المعرفة، والقلب وعاؤها، والصدر ساحة الذكر. فالقلب عند الحكيم :"داخل الصدر وهو كسواد العين الذي هو داخل العين وهو معدن نور الإيمان، ونور الخشوع، والتقوى والمحبة، والرضا، واليقين والخوف والرجاء والصبر والقناعة وهو معدن أصول العلم. "والصدر في القلب هـــو في المقام من القلب بمترلة بياض العين في العين. وهو موضع نور الإسلام، وهـــو موضع حفظ العلم المسموع الذي يتعلم من علم الأحكام والأخبار وكل ما يعبر عنه بلسان العبارة، ويكون أول سبب الوصول إليه التعلم والسمع وإنما سمي صدرا لأنه صدر القلب وأول مقامه كصدر النهار الذي هو أوله" .

فالقلـــب معدن أصول العلم لأنه مثل عين الماء، والصدر مثل الحوض يخرج مـــن العـــين إليه، الماء كالصدر يخرج من القلب إليه العلم أو يدخل من طريق

السمع إليه والقلب يهيج منه اليقين والعلم والنية حتى يخرج إلى الصدر، فالقلب هــو الأصل، والصدر هو الفرع، وإنما يتأكد بالأصل الفرع. وإذا كان القلب عـــند الحكيم معدن العلم، فالصدر موضع يصدر إليه علم العبارة والذي تحت علم العبارة وهو علم الحكمة والإشارة .

"وعلم العبارة حجة الله على الخلق يقول الله لهم : ماذا عملتم فيما علمتم؟ وعلـــم الإشارة محجة العبد إلى الله بهداية الله تعالى له، إنه من عليه بكشف قلبه بمشاهدة غيبه ورؤية ما وراء حجبه كأنه يرى ذلك كله بعينه حتى لو كشف له الغطاء لما زاد في نفسه ".

"فـــإذا كانـــت "البهجة" شعبة من شعب المعرفة فجوهر الذكر عند الحكيم التـــرمذي "البهجة" فإذا بدأ الذكر على القلب هاج الفرح، فلو لم يمازجه فرح الـــنفس بها لطاب الذكر. ولكن النفس لما جاءت بمزاجها تكدر الفرح فانقطع المـــدد من المذكور فبقي الذكر مع كدورة الفرح، فأهل الصفاء يلتذون بالذكر لأن نفوســـهم في سجون القلب وسلطان المعرفة، قد أحاطت بالنفس، فلا تقدر الـــنفس أن تتحـــرك للمزاج والأخذ بنصيبها" قال قائل: للحكيم الترمذي : "ذكـــرت المـــزاج فصف لنا شيئا منه" قال :" أما ظاهر المزاج فترى أحدهم في الذكر يرقص وإن لم يرقص صفق بيديه وإن لم يصفق حرك رأسه كالمعتوه، وإن لم يفعـــل ذلك تمادي بمنكبيه" .. فهذه الأفعال كلها من هيجان النفس والمزاج الذي أنت به .

وأما في الباطن فالتفات القلب إلى الذكر فذاك مزاج النفس فإن الذكر غير المذكور".

وإذا كـــان أصل الذكر ــ عند الحكيم ــ في القلب " فإن عمله بالفؤاد في الصدر فإذا خرجت المشيئة من باب الرحمة جرت الإرادة من باب الحكمة، هاج الذكـــر من ملك "البهجة" فثار ضوئها إلى الصدر فتراءى الضوء لعيني الفؤاد

فارتحل بعقله شاخصا إلى الله فصار ذلك الضوء مركبه إلى الله، والراكب عقله فهذا هو الذكر"، وتخلص من هذا إلى أن الذكر عمله بالفؤاد في الصدر والفؤاد يتراءى ضوء "البهجة" بعينيه . وقد يكون مفيدا أن نعرف أن الفؤاد عند الحكيم الترمذي "مشتق من الفائدة، لأنه يرى من الله عز وجل فوائد حبه فيستفيد الفؤاد بالرؤية، ويتلذذ القلب بالعلم، وأنه ما لم يسر الفؤاد لم ينتفع القلب بالعلم". "وسمي الفؤاد فؤادا لأن فيه ألف واد، فإذا كان فؤاد العارف فأوديته جارية من الأنوار من إحسان الله تعالى وبره ولطفه" "والفؤاد موضع المعرفة، وموضع الخواطر، وموضع الرؤية، وكلما يستفيد الرجل يستفيد فؤاده أولا ثم القلب، والفؤاد وسط القلب كما أن القلب في وسط الصدر مثل اللؤلؤة في الصدف" "فإذا كان "الذكر" من صاحب مرتبة ومجلس ونجوى فهناك انقطع عنه التفات القلب إلى الذكر، وبقيت عينا فؤاده شاخصتين إلى المذكور فهو مشغول به لا يتفرغ للالتفات إلى الذكر، فهؤلاء أهل صفاء الذكر، والذكر من الصدر، والعين إلى المذكور، واللذة في الجوارح .

فالنفس حينئذ مشغولة بلذة الجوارح، والقلب مشغول بالمذكور، والصدر معمور بالذكر".

والنفس البشرية التي يعمرها الصفاء، ويعيش في أعماقها إحساس اليقظة والانفتاح تحس بهذا الشعور يملأ جوانبها، ويسيطر على كل أفق ومدخل فيها، فتشعر بالحاجة إلى مبدئها، فتتوجه إليه لاستقبال فيوضات الرحمة، وتلقي رشحات الكمال والخير. فهي تعرف أن ذلك هو سعادتها ومنبع خيرها، فيتحول هذا الشعور بالإعظام والإكبار والإحساس إلى تعلق بالله، ورغبة في القرب منه، فتظل النفس البشرية تلهج بذكر الله، وتردد عبارات الثناء والتعظيم والتقديس الذي يعبر عن فهمها لعظمة الله فتستغرق في التسبيح والتنزيه، وتبالغ في التعظيم والتمجيد والثناء، في محاولة للتعبير عن حبها

وإعجابها، وخشوعها، وهيامها بتلك الصفات والكمالات التي أصبحت تملأ شتى جوانحها .

فليس ذكر الإنسان لله سبحانه إحساسا عائما، ولا عملا مقطوع الصلة والجذور بالسلوك والمواقف العملية للإنسان. قال تعالى :﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ .

فالإنسان الذاكر يرى الله معه في كل عمل يقوم به، ويحس بوجوده في كل آن ومكان يعيش فيه، حتى ليرى الله قائما في كل شيء ومع كل شيء وهاتان النتيجتان هما ظاهرة طبيعية للذكر الخفي وإحساس النفس بوجود الله سبحانه .

أما الذكر الظاهر فله أيضا مظاهره، وصور التعبير عنه فهو ترجمة لخلجات النفس وأحاسيس الفكر، وأشواق الروح، باستعمال الكلمة، والعبارة كالمديح والثناء، والتقديس والتسبيح، والتعظيم لله سبحانه .

لذا كانت تجربة الحب الإلهي تجربة إنسانية رائعة لا يدرك أبعادها، ولا يعي مضامينها إلا أولئك الذين عاشوا مشاعر الاستغراق وإلا الذين مزقوا حجب "الأنا" وأحاسيس الانفراد فأذابوها في هذا الحب وعاشوا في ذهول عن عالمهم الذي ما برح يحكم قبضته، ويرسل شتى صنوف الإغراء والاستهواء. وإذا كنا قد عرفنا أن أصل الذكر عند الحكيم في القلب فإن الحكيم يبين أن :"القلوب لها محلات" :

— فمحلة العامة قلوبها محبوسة في الجو، لا تصعد لأن الشهوات قد ثقلتها، والهوى قد قيدها .

— وقلوب المريدين في سيرهم في منازلهم أين ما وقف فهو محله، وإنما قيده هواه وثقله باقي شهواته .

— وقلوب الواصلين في محلاتهم عند العرش، وقد قيدهم باقي أهوائهم لا يصلون إلى مجالسة في ملكه .

ـــــ وقلوب أهل الصفو من الواصلين واصلة إليه في مجالسة، فذلك خالص النجوى وصافي الذكر .

فهياج الذكر من ملك "البهجة" يثير الضوء إلى الصدر، والذكر يكون بقدر الضوء الذي خرج إلى الصدر، ولهذا تتباين المحلات لتباين المراكب .

يقول الحكيم :"وإنما ذكره بقدر ضوئه الذي خرج إلى صدره من معرفته فإنما تباينت المحلات لتباين المراكب، لا يستوي من ركب حمارا دبرا بمن ركب فرسا عــــربيا، فأهـــل الذكر على اختلاف طبقاتهم إنما ينال كل ذاكر من ذكر الله له على قدر ذكر العبد له، وعلى قدر مركبه" .

ويـــؤكد الحكـــيم الترمذي هذه الحقائق ويضرب لها أمثلة من واقع الناس فيقول :"ومثل الذكر في الحقيقة مثل رجل شم مسكا وللشم تفاوت

ـــ فرجل شمه من وراء وعائه وزجاجه وكنه .

ـــ ورجل فتح الكن وشمه من وراء الوعاء والزجاجة .

ـــ ورجل خلص إلى الزجاجة، فشمها والمسك في صرة .

ـــــ ورجـــل فتح الوعاء وهو الصرة فشمه بحتا فهذه كلها مسامات مختلفة متفاوتة .

ـــــ ورجـــل شمه ممزوجا بالمسك والعنبر والأدهان، وتسمي غالية لأن ثمنها غال، ثم ضم لها من سائر الطيب حتى يصعد سلطان ريحه، وذكاوة ريحه، فذلك المحمـــود المنتفع به، وإنما تحمد الأشياء التي تؤدي منه إلى الخلق حتى يكون هذا الحسن راجعا إلى الأصل الذي منه جرى النفع إلينا فقام الحمد مقام أصل النفع.

ـــــ فكمـــا بـــان تفاوت هذا الشم لهذا المسك فكذلك بان تفاوت ذكر الذاكرين" .

فتفاوت ذكر الذاكرين يعود إلى تباين محلات القلوب، والذكر يقرب العباد إلى الله لأنه مركب القلوب إلى الله المعبود الذي لا يغيب ذكره، والإله الذي لا تغرب عن النفس معاني وجوده. فصفاته وإفاضات حبه بالنسبة لهؤلاء الذاكرين

هــي الــنور الذي يملأ آفاق البحث عن الحب في ضمير الإنسان الذاكر، وهي الحقــيقة التي تستعبد قلبه وعقله فيؤلهها فيركع ويسجد ويسبح بالحمد والثناء ليعبر عن مشاعر الحب والعبودية في نفسه لله الأحد المعبود .

وعــندما يــنمو هذا الإحساس في ضمير الإنسان، وتترسخ هذه العلاقة ــ علاقة الحب والود ــ بين الإنسان وخالقه يبدأ ذكر الله يعيش في نفس الإنسان إشــراقا لا تغيب شمسه وحضورا لا ينسى وجوده. ومن هنا كان الذاكرون هم اللاهجون بذكر المعبود، المشغولون بالثناء والمستهامون بجمال الصفات وجلال الآثار، وكمال الذات .

لقد استولى الذكر على نفوسهم، واحتل كل مساحة ومتسع في قلوبهم، فلم يعــد لغير هذا المعبود متسع أو موقع في نفوسهم، فغدت قلوبهم عرشا للحب ومتــسعا للشوق... يذكر الحكيم الترمذي : "أن كل ذاكر بما يذكر على قدر قــربه مــن الله، ووجدان ريح الرأفة، لأنه لا يأذن لأحد في ذكره حتى يجعل له حظــا من رأفته، فإذا تحركت الرأفة هاج الحب حب الله عز وجل لعبده. فإذا هاج احتملته الرحمة فأدته إلى العبد، وفي الحب والرأفة فرح البهجة فمبتدأ ذكر العــبد من ملك البهجة، فإذا تحركت البهجة هاجت رياح البهجة على قلوب الموحدين، فظهر الذكر فإذا ذكر الموحدون بالقلوب صعد الذكر إلى محل ملك البهجة، فذكرهم الرب تبارك اسمه، فإذا نطقت الألسن بالذكر ظهر ثناء وذكر محاســنه وصفاته صعد هذا الذكر إلى الله جل وعلا فوقفت أنوار الذاكرين بين يديه كالشفعاء لقائله" .

وعــند ذلــك كما يقول الحكيم الترمذي ــ يذكر الله تبارك اسمه عبده بما يقربه إليه فيظهر من الرب تبارك وتعالى للعبد بالنظر له في جميع أموره فيشتمل ذلك الذكر من الله جل ثناؤه على سيئات العبد لأن الرب تعالى إذا ذكر عبده فإنما يذكره بالثناء عليه فذاك الثناء من الله عز وجل يشتمل على مساوئ العبد فيسترها حتى تذوب تلك المساوئ في حريق ذلك الحب "

ويستدل الحكيم الترمذي على ما ذهب إليه بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .ويعرض لبيان هذا الدليل فيقول :"فجعل ذكره الحادث عوضا عن الغائب في ساعات النسيان، ومستدركا له، وهذا لعظم حرمة الذكر، ورفيع مرتبته عند الله عز وجل لأن الذكر منبعه من الفرح، وفرح الله بعبده ومشيئته وفيضه من باب الجود، فلذلك صار ساعة الذكر عوضا عن ساعات النسيان فتشتمل على تلك الساعات فتورد على العبد ما يتلافى كل ما فاته" .

وإذا كان كل ذاكر ينال من ذكر الله له على قدر ذكر العبد له فإن :

"قربة الله إلى العبد على قدر قربة العبد إلى الله "

ويؤكد الحكيم الترمذي هذه النتيجة التي ذكرها بالحديث القدسي الذي يقول فيه تعالى :" إن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا"، ويمضي الحكيم في بيان هذا الدليل فيقول :"والله أسرع إلى العبد من العبد إلى الله لأن سرعة الله إلى العبد بالفرح الصافي وسرعة العبد إلى الله بالفرح الممزوج لأن فرح الله بالعبد يخرج من باب الجود وهيجانه من حبه له، وفرح العبد بالله يخرج من باب الضوء لأن الله غني، والعبد فقير، فلذلك قال :"إن تقرب شبرا تقربت ذراعا" فأعلم العباد في تنزيله شأن الذكر فقال :﴿فاذكروني أذكركم﴾. فيجعل ثواب الذكر ذكره للعبد "فالذكر هو ارتحال القلب إلى الله، وذكر الله هو دنو الله من العبد، كل ذاكر إنما يحتظي من دنوه بقدر رحلته، إنما ينال من الرحلة على قوة الراحلة فراحلة تطير، وراحلة تجمز وراحلة تسير على هينة وراحلة قطوف قعود، تسير مرحلة في يومين أو ثلاثة" .

فالذاكرون عند الحكيم :

ــ طبقة تصل إلى محل العرش حتى تطل عليه فتطعم منه .

ـــــ وطبقة عجزت عن الوصول إليه، وإنما يطعمون من الأيدي المتداولة له إلى محل هذا العبد فإنما يطعم من الأيدي بمقدار .

ـــ وطبقة يصل إليهم من هذا العرش ريحه على الشام .

ـــــ وطبقة وهي العامة تنال من هذه الريح كالخيال، وكأثر الشيء فتقوى قلوبهم بذلك .

ـــــ فالطبقة التي ولجت ملك العرش حتى أطلت عليه فصدرت شباعا رواء هـــم الـــذين وصـــفهم الله على لسان رسوله ﷺ فقال : من شغله ذكري عن مـــسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين "فإنما شغله ذلك الطعام الذي أشبعه هناك في العرش عن أن يذكر حاجة فيسأله لأنه شبع وروي، فالشبعان ممتلئ لا يذكـــر شيئا لأنه قد يسد أبواب الحاجة بشبعه فوعد من كان بهذه الصفة أن له عـــندي أفـــضل ما أعطى السائلين" قال للحكيم الترمذي قائل: "ما أفضل ما أعطـــي الـــسائلين"؟ قال الحكيم :"الثبات" فهذا حظه لا تناله إلا هذه الطبقة الواصـــلة في ملـــك العرش الذين صدروا شباعا، فإذا تخطوا هذا المحل إلى ملك الملك فصار المرعى بين يديه، وهناك خلصوا إلى أصل العرش فطعموا من الجفنة، وارتعوا بين يديه للمزاج والهناءة .

وهـــناك صاروا في القبضة، واستوجبوا الثبات، وصاروا أمناء الله وخاصته" فالثـــبات الذي هو أفضل ما يعطي الله السائلين لا تناله إلا الطبقة الواصلة أمناء الله وخاصته، وهم :"أهل القبضة والذين يستعملهم، وهو قوله تبارك اسمه فيما حكـــى عـــن رسول ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه تبارك وتعالى اسمه أنه قال:"فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله وفؤاده ولسانه فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي وبي يعقل وبي ينطق" فهذا عبد مرعي مكلوء محروس مربى بالعين"

"فأهـــل الثبات: طبقة ذكرت فارتحل القلب فخلص إلى ملك الملك بين يديه فلاحظ القدرة، ولم يقدر على ملاحظة القدر، لأنه مستور عن الملائكة والرسل، فهـــذا المشغول بالله عاقه شغله بالله عن المسألة" ويسمي الحكيم الترمذي هذه الطبقة بأهل اليقين فيقول :"وأما أهل اليقين وهم السابقون فهم درجات" .

فأولهـــا : الخشية يمتنع بها من جميع ماكره الله تعالى دق أو جل والخشية من القـــربة والعلـــم بالله، فإذا علم لزمه خوف العظمة لا خوف العقاب وإذا كان الخـــوف لازما للقلب غشاه بالمحبة فيكون بالخوف معتصما مما كره، وبالخشية وبالمحـــبة منبسطا في أموره، إذ لو ترك مع الخوف لانقبض وعجز عن كثير من أمـــوره، ولـــو ترك مع المحبة لاستبد وتعدى لكنه لطف له فجعل الخوف بطانته والمحبة طهارته، حتى يستقيم به قلبه ثم يرقيه إلى مرتبة أخرى وهي الهيبة والأنس. فالهيبة من جلاله والأنس من جماله .

فـــإذا نظـــر إلى جلاله هاب وانقبض، ولو ترك هكذا لصار عاجزا في جميع أموره كجثة بلا روح، وإذا نظر إلى جماله امتلأ كل عرق منه فرقا وسرورا ولذة ونعـــيما، لامتلاء قلبه، ولو ترك هكذا أداه إلى التعدي والإفراط، لكنه لطف له فجعل الهيبة شعاره، والأنس دثاره حتى يستقيم به قلبه، فهو عبد ظاهره الأنس بـــالله، وباطنه الهيبة من الله تعالى ثم يرقيه إلى مرتبة أخرى وهي مرتبة "الانفراد بـــالله" قربه القربة العظمى وأدناه، ومكن له بين يديه ونقاه، وفتح له الطريق إلى وحدانيـــته فهـــو ناظر إلى فردانيته فأحياه الله تعالى به واستعمله، فبه ينطق وبه يعقل وبه يعلم، وبه يعمل وقد جاوز مقام الهيبة والأنس إلى مقام الأمناء .

فأهل اليقين ـــ كما عرفنا من كلام الحكيم الترمذي ـــ لهم درجات :

ـــ أولها الخشية ثم الهيبة والأنس ثم الانفراد بالله .

"فالذاكـــرون تباينت طبقاتهم لاختلاف الأحوال في الذكر، فليس من أحد يذكـــر ربه إلا وبدو ذلك الذكر من ربه، وذلك الذكر من الرب إذن للعبد في

الارتحال إليه. فإذا ذكر الله مبتديا فإنما ذكره من ملك البهجة فذلك شوق الله إلى عبده، ذكره ليهيج بذكره له من العبد ذكره، فيهيج شوقه إلى الله كل على قدره"

"فالذكـــر الأول بدوه من الله من ملك البهجة اشتاق إلى الموحد لأنه محبوبه فهـــاج مـــن الفرح الذي له العبد، فهاج العبد من معدن المعرفة فأضاء الصدر فأبصرت عينا الفؤاد فارتحل القلب المختلط بلحمة الفؤاد إلى الله مشتاقا فصاروا على درجات وطبقات .

ـــــ فطبقة ذكرت ثم انقطع ذكرها ولم تقدر على الارتحال لثقل الشهوات وجذب الهوى نفسه إلى الشهوات .

ـــــ وطبقة ذكرت ثم ارتحل القلب فانقطع في بعض المسافة فلما انقطع حاد يمينا وشمالا من حيث بلغ فلاحظ إحسانه وأياديه .

ـــ وطبقة ذكرت فارتحل القلب فجاوز مسافات الجو حتى وصل إلى القربة ثم انقطع هناك فحاد يمينا وشمالا فلاحظ المنن .

ـــــ وطبقة ذكرت فارتحل القلب فصار إلى القربة ثم ولج ملكا من ملكه ثم انقطع فحاد يمينا وشمالا فلاحظ تدبيره .

ـــ وطبقة ذكرت فارتحل القلب فخلص إلى ملك الملك بين يديه .

فالذكـــر عند الحكيم الترمذي :"إذن من الله للعبد في الارتحال إليه، وهو ما يستنير على القلب من منن الله وصنائعه" .

وأنـــت ترى أن الحكيم الترمذي يقول عن الذكر أنه "ارتحال القلب" وابن عربي يقول في فتوحاته :"الذكر من العبد باستحضار". والارتحال والاستحضار اســـتجابة لشعور الإنسان السالك نحو مصدر الإفاضة على هذا الوجود وبحث عن القرب والانضواء، ورفض للعبد والانفصال عن المعبود :

وإذا كانت القلوب تتفاوت بحسب ارتحالها واستحضارها فإن الذكر بوصفه أساساً من أسس السلوك به تتفاوت القلوب، ومن ثم أصحابها في الصديقية والصادقية والقرب والتفرد. وفي هذا يقول الحكيم :"فذكر الله" على وجوه :

فأول ذكره : التوحيد.

والثاني : ذكره بالأمر والنهي.

والثالث : ذكره عند كل نعمة في الدين والدنيا .

والرابع : ذكره بالمنة.

والخامس : ذكره بالتدبير.

والسادس : ذكره بالمحبة .

والسابع : ذكره بالوله .

والثامن : ذكره بالشوق.

والتاسع : بالإفضال .

والعاشر : ذكره بالمرعى على الدوام" .

فكل ذاكر على حسب ذكره يرجع إليه ثمرة ذكره، ومن ذلك الوجه يذكرونه. فالذاكر على وجوه، فعلى أي وجه ذكرته ذكرك من ذلك الوجه فإن ذكرته "بأنه ربك" ذكرك بالتربية لك .

وإن ذكرته "الطاعة" ذكرك باليسر وصرف عنك السوء .

وإن ذكرته "بالتذلل له والخشوع" ذكرك بالحفظ والعصمة .

وإن ذكرته "ببذل النفس وقربها إليه" وإلقائها بين يديه ذكرك بالقبول وكنت في قبضته فبه تسمع وبه تبصر وبه تعقل .

وإن ذكرته لعظمته وجلاله عظمك وأجلك .

وإذا كان الذكر ــ عند الحكيم الترمذي ــ على وجوه ، وعلى أي وجه ذكرت الله ذكرك الله من ذلك الوجه .

فإننا نجد ذلك عند ابن عربي حيث يقول: قال تعالى :"فاذكروني أذكركم". فجعل وجود ذكره عند ذكرنا إياه وكذلك حاله فقال تعالى :"إن ذكرني في

نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم" فأنتج الذكر الذكـــر، وحال الذكر حال الذكر، وليس الذكر هنا بأن نذكر اسمه، بل لتذكر اسمــــه مـــن حيث ما هو مدح له وحمد، إذ الفائدة ترتفع بذكر الاسم من حيث دلالته على العين لا في حقك ولا في حقه .

يقـــول ابن عربي "فإن قلت: فقد رجح أهل الله ذكر لفظة "الله الله" وذكر لفظة "هو" على الأذكار التي تعطي النعت، ووجدوا لها فوائد :

قلت : صدقوا وبه أقول

ولكـــن ما قصدوا بذكرهم :" الله الله" نفس دلالته على العين وإنما قصدوا هـــذا الاسم أو الهو من حيث إنهم علموا أن المسمى بهذا الاسم أو هذا الضمير هو من لا تقيده الأكوان، ومن له الوجود التام .

فإحـــضار هـــذا في نفس الذاكر عند ذكر الاسم بذلك، وقعت الفائدة فإنه ذكـــر غير مقيد فإذا قيده "بلا إله إلا الله" لم ينتج له إلا ما تعطيه هذه الدلالة، وإذا قيده "بسبحان الله" لم يتمكن له ان يحضر إلا مع حقيقة ما يعطيه التسبيح، وكذلك "الله أكبر" و "الحمد لله" و "لا حول ولا قوة إلا بالله" وكل ذكر مقيد لا ينـــتج إلا ما تقيد به" ومما يجدر أن ننتبه له أن الحكيم الترمذي جعل الذكر على ضربين :

الضرب الأول : ذكر العارفين والموحدين "والخلق مندرجون فيما بين هذين الطرفين كل على درجته" فذكر الذاكرين على درجات وفي طبقات.

وذكر العارفين :"أن يذكر هويته بلا كيف فيغرق في الدنيا والآخرة والنفس والملكوت وملك الملك فتأخذه البهتة"

وذكر الموحدين:"أن لا يذكر من "الهوية" إلا الألوهية فقط"

في ذكر "الهوية" لا يجد على قلبه إلا بذكر "الهوية" لأن شهوات النفس على القلـــب جاثمة، كالفحل المغتلم الذي يهدد ويضرب بأنيابه فيجثم على الإنسان فيدوســـه تحـــت ميسمه في التراب ويلزقه بالأرض كذلك القلب جثمت عليه النفس بشهواتها ومناها فهي تدسه في الشهوات والأقذار فتلزقه بالأرض. وبهذا

لا يكون للنور من السلطان ما يحرق عن قلبه جميع الأشياء فنجده ذاكر خاملا، ومطــيعا عاصيا، ومقبلا لاهيا، وهذا أحد الطرفين. "والطرف الآخر أن ينقلب القلـــب من جثوم النفس عليه ويخرج من أسارها فيجد فسحة وروحا ويتمكن ويــتمدد، ويتنحنح فيما ورد عليه من العطاء منة من الله على عباده ودولة من السعادة ظفر بها، ورحمة منه أدركته فلم تزل المنن تتابع عليه بالأنوار هداية من الله لــه عونا على سيره إلى الله ووقوفا به إلى بابه حتى جاوز الأشياء إلى خالق الأشياء، وجاوز الملك إلى مبدي الملك فوصل إلى ذكر هويته فغرق فيه قلبه مع الأشياء كلها" .

فالــنفس البــشرية التي يعمرها الصفاء، ويعيش في أعماقها إحساس اليقظة والانفــتاح تحس بالمنن تملأ جوانحها، وتسيطر على كل أفق ومدخل فيها فتشعر بالحاجــة إلى مــبدئها، وتحــس بنقصها وكمال خالقها فتتوجه إليه لاستقبال فيوضات الرحمة وتلقي رشحات الكمال والخير.

ومــا ذكــره الحكيم الترمذي ذكر الموحدين وذكر العارفين هو ضرب من الذكر أخذ الموحدون منه بطرف، والعارفون بالطرف الآخر "وهو ذكر واحد، ومعرفة واحدة، وتوحيد واحد".

وإذا كان ذكر الموحدين وذكر العارفين ضرب من الذكر له طرفان ــ كما عــرفنا ــ "فإن الضرب الآخر من الذكر ــ عند الحكيم الترمذي ــ هو ذكر أسمائه وهو على ضربين :

منها : أسماء : هي أمثاله العليا وهي صفات الرب تبارك اسمه ومنها : أسماؤه الحسنى وهي آياته الكبري .

فإبــداء هذه الأسماء من فردانيته لخلقه كي تعمل معرفتهم له بهذه الصفات والأسماء على قلوبهم عمل اليقين والاستنارة والمعاينة والمشاهدة بالقلوب فيكون ذلك قوة لهم في نوايبهم على اختلاف أحوالهم" .

ومــناجاة الله، والتقــرب إلــيه بأسمائه إنما هو تعبير عن حب الإنسان لهذه الأسماء، ومعرفته بتجلي آثارها على صفحة الوجود.

لقد كان الترمذي موفقا تمام التوفيق حين جعل الذاكرين في طبقات والذكر علـــى درجات ومراحل، لأن القلوب تتفاوت في سيرها إلى الله سبحانه وتعالى، وارتحالها إليه.

يقول الحكيم الترمذي في كتاب "معرفة الأسرار" فصل في الذكر وهو ثلاث طبقات :

ـــ طبقة قد اشتغلت بالذكر، وعلامة المشتغل بالذكر أنه مهما رأى بعينه شيئا أو سمع بأذنه شيئا لا يشغله عن الذكر.

ـــ وطبقة قد شغلهم الذكر، ومن شغله الذكر لا يشغله شيء عن الذكر، ولا يريد بذكره العوض .

ـــ وطـــبقة قد شغلهم المذكور عن الذكر، ومن شغله المذكور عن الذكر رؤيته تهيج الناس على الذكر، وكل شيء يكون له ذكر.

فالمذكور واحد، والذكر مختلف، ومحل قلوب الذاكرين متفاوتة."

ومـــا يسترعي الانتباه أن الحكيم الترمذي قد جعل الذكر والتسبيح مقدمة ضـــرورية لحصول المدد الإلهي . بل أشار إلى ما يشبه رابطة السببية بين تسبيح المخلوقات لله، وبين ما يقع من عناية الهيبة "

فالعلاقة بين وقوع الأوجه المختلفة للرحمة الإلهية وبين وقوع التسبيح والذكر من المستويات المتباينة للمخلوقات هي علاقة تلازم وترابط في الوقوع أقرب إلى تـــلازم السبب بالمسبب أو الشرط بالمشروط... على أن هذا لا يمتد إلى طبيعة الفعـــل الإلهي الذي يتجاوز الشروط والأسباب والعلل، ولكنه سبحانه أراد أن يعـــود خلقـــه علـــى طلب الأسباب في كل شيء فإذا كان الرزق أو الكسب مـــشروطا بالسعي والكد والعمل، فإن عناية الله ومدده كله مشروط ومتوقف علـــى تسبيحنا إياه، وذكرنا له، وليس السعي إلى الرزق إلا من قبيل التسبيح والذكـــر، لأن تنفيذ كل الأوامر الإلهية والبعد عن كل المنهيات هو تسبيح له وذكر .

وإشـــارات الحكـــيم في هـــذا الموضوع تقول "سبحان من حياة كل شيء بتسبيحه لأن، الحياة منها بدت الحركات، والله متره عن الحركات فلما ظهرت حركة الخلق ظهرت المعاصي والجرأة فدعا جميع الخلق إلى تسبيحه فقال : "وإن من شيء إلا يسبح بحمده" . ليترهوا ولي الحركات عن جميع الحركات لتدوم لهم الحـــياة، لأن مـــن الحركات ظهرت المعاصي والاستخفاف بحقه وترك تعظيمه، فـــصارت الحـــياة التي تبقى على الخلق تدوم وتدر من الحياة عليهم، حتى يحيوا بـــتلك الحـــياة الـــتي أبرزها لهم الحي الدائم، ولولا التسبيح لانقطع در الحياة فصارت الأشياء كلها مواتا فإذا نزهوه بالتسبيح دام الأوراد على الخلق فحيوا، الأوراد ســـبحان من بقاء كل شيء بتقديسه. فالخلق خرجوا من عند القدوس مقدسين فتدنسوا بالآفات فإذا قدسوه بقيت الزينة التي من القدس بالوفاء منهم مع الأدناس، ولولا ذلك لتهافتت الزينة عنهم وذهبت زينة الأشياء وحسنها .

فتدبـــر آثار رحمة الله، والإحساس بوجوده يحول بين الإنسان وبين الانفكاك عن خالقه كي يكون الإنسان دائم الذكر لله سبحانه مستمر الارتباط به، متفتح الوعـــي والروح لاستقبال فيض القيم والمعاني التي يوصي بها هذا الوجود. وإذا كـــان الإحـــساس بوجود الله والتفكير في عظمته يدفع إلى الذكر فإن أثر هذا الإحـــساس يتجسد حقيقة سلوكية في حياة الإنسان عندما يحس بدوام وجوده معه ومراقبته له، ويتذكره في كل فعل يقدم عليه .

وهـــذه الدرجة من الذكر هي أصدق مراتب الذكر، وأكثرها أثرا في حياة الإنسان لأن هذا الذكر يترك آثارا سلوكية ومواقف إرادية .

فهرس